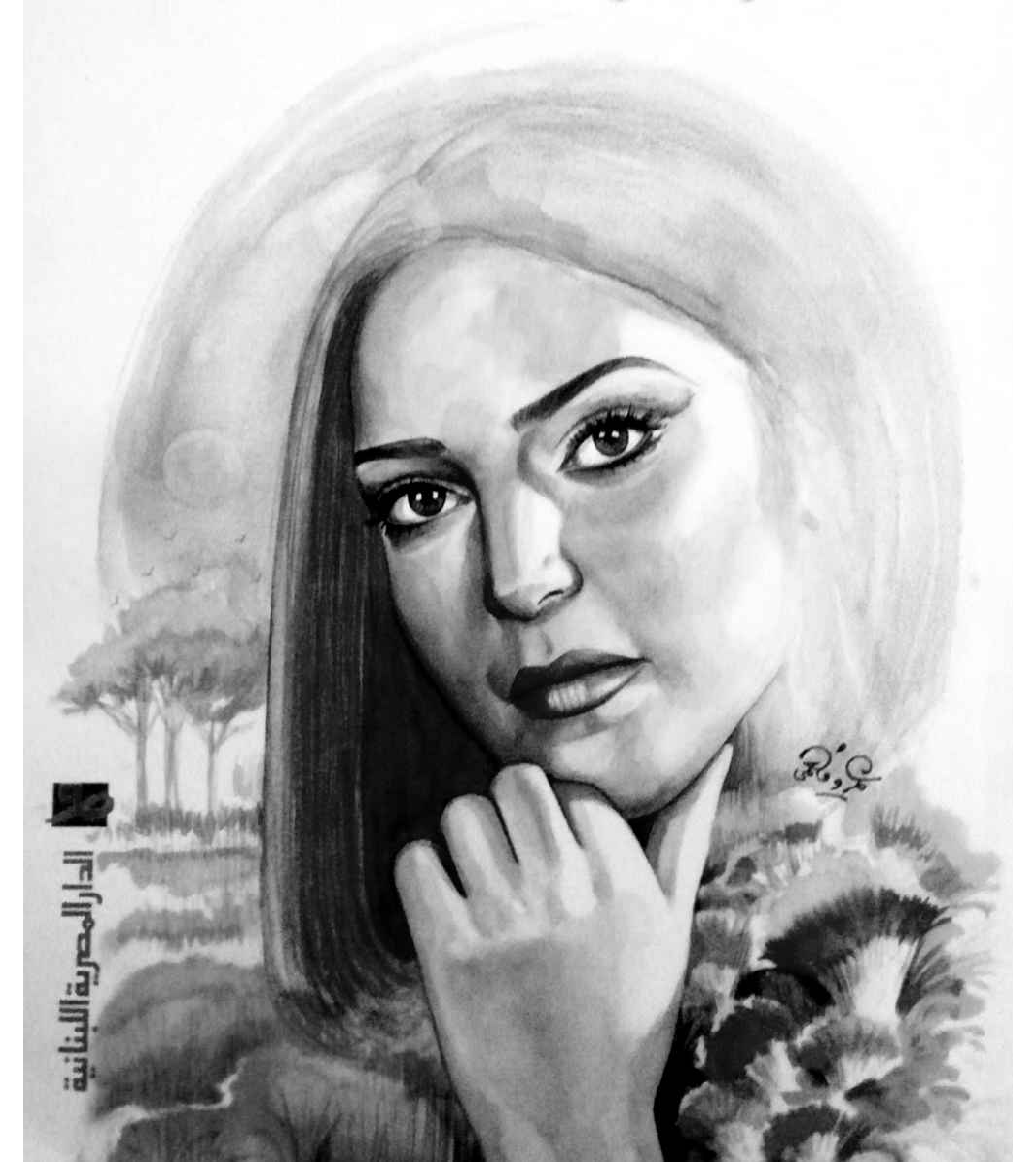
عبد الوهاب مطاوع

الزهرة المفقودة



الزهرة المفقودة

مطاوع ، عبد الوهاب.
الزهرة المفقودة / تأليف عبد الوهاب مطاوع
.. ط 1 . ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2009.
230 ص ، 20 سم .
تدمك : 977 _ 270 _ 830 _ 2
1- روايات

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com
رقم الإيداع: 1544 / 2004

الطبعة الثانية: شعبان 1426 هـ ـ سبتمبر 2005م
الطبعة الثالثة: ربيع الآخر 1428 هـ ـ مايو 2007 م
الطبعة الرابعة: شعبان 1430 هـ ـ أغسطس 2009 م

عبد الوهاب مطاوع

الزهرة المفقودة

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هل تحتاج هذه المجموعةالجديدة من القصص الإنسانية الواقعية إلى مقدمة أهيئ بها القارئ لقراءتها وتَلَمُّس دروسها وعبرتها؟

إنها مجموعة أخرى مختارة من قصص بريد الجمعة التى أحرص على جمعها وإصدارها فى كتب مستقلة، استجابةً لرغبة القراء الذين يطالبوننى دائما بذلك، ولقد قلتُ فى مقدمات كتبى العديدة السابقة التى ضمت هذه المجموعات من القصص كل ما يمكن أن يقال عن أهمية التجربة الإنسانية والاستفادة منها فى تجنب عثرات الطريق، وعن خبرة الألم وكيف تكسب الإنسان أعماقا جديدة وتورثه الحكمة، وعن احتياج الإنسان الأبدى إلى من يهتم بأمره ويحترم أحزانه.. ويسمع له ويعطيه من نفسه ما يشعره بأنه ليس وحده فى مواجهة همومه الإنسانية..

ولقد أستطيع أن أزعم لك أنك تجد فى هذا الكتاب الجديد نفس

هذا الاهتمام بآلام الإنسان وأحزانه وآماله وإحباطاته، ونفس الرغبة الصادقة فى إعانته على أمره.. وإخلاص المشوره له.. والأخذ بيده إلى طريق الأمان.. والله من وراء القصد.

عبد الوهاب مطاوع

السفينة التائهة!

لا أكتب لك عن مشكلة أواجهها، وإنما عن تجربة مررت بها وأرغب فى أن يستفيد بخبرتها غيرى، خاصة الفتيات اللاتى فى سن الزواج.

فأنا سيدة شابة عمرى ٢٨ عاما وأعمل بهيئة أجنبية وتخرجت فى كلية عملية مرموقة وأشغل منصبا ممتازا وقارئة جيدة للفكر الإسلامى والغربى على السواء، كما أننى كنت بطلة فى إحدى الألعاب الأوليمبية.

وقد بدأت تجربتى حين تقدم لى، وأنا طالبة بالسنة النهائية فى الجامعة شاب يكبرنى بسنوات بدت لى كثيرة بالرغم من أنه فى قمة النضج والشباب، ولأننى قد نشأت يتيمة الأم منذ طفولتى، وأبى لم يكن يجيد وزن مثل هذه الأمور، وإخوتى الشبان كل منهم مشغول بأحدث أغنية وأقوى فيلم وأحدث موضة.. وأروع سيارة، فلقد افتقدت المشورة المفيدة فى هذا الموقف.. خاصة أننى قد فقدت مبكرا شقيقتى التى راحت ضحية لحادث مؤلم، وكانت لى نعم الأخت والصديقة، يرحمها الله.

وهكذا فقد عجزت عن اتخاذ القرار السليم وترددت فى قبول خطبة هذا الشاب بالرغم من أنه لا ينقصه شىء، ولم يكن يعيبه من وجهة نظرى فى ذلك الوقت سوى جهله بأحدث موضة «وأروش» أغنية وأسرع سيارة. . . إلخ.

وقد أثار خوفى وخوف الأهل والأصدقاء فارق السن بيننا. . كما أننى قد فسرت حبه الجارف لى بأنه محاولة منه لإخفاء عيوب جوهرية فيه أو تعويضى عنها! وهكذا فقد رفضته. . وطلب هو منى أن أعيد التفكير فى الأمر فوعدته بذلك. . فمضت فترة وهو يتعلق بالأمل فى قبولى له وزواجى منه، ومن حين لآخر يتقدم لى فأرفضه تارة وأعلق القرار تارة أخرى. . أو تقابله أسرتى بجفاء فى مرة ثالثة، وهو لا يسلم باليأس منى أبدا. واستمر الحال على هذا النحو بضع سنوات، تزوجت خلالها كل صديقاتى ووجدت نفسى الفتاة الوحيدة بينهن، وبدأت أشعر بالقلق والتوجس من المستقبل خاصة أن أبى كان قد مرض خلال ذلك مرضا شديدا، ثم رحل عن الحياة هو الآخر يرحمه الله.

ولم يقف بجوارى فى محنة مرضه سوى هذا الشاب بالرغم من مراوغتى له. وبعد وفاة أبى تقدم لى خطيب آخر فقبلته دون أن أفكر فى تغيير موقفى من الشاب الذى يتمنانى لنفسه منذ سنوات. . ولم تدم خطبتى لمن قبلت به سوى بضعة أشهر، ثم تحطمت على صخرة

غيرته الشديدة علىّ.. وتوقع الشاب الأول بعد فسخ الخطبة أن أكون على استعداد لقبوله هذه المرة.. لكنى خيبت ظنه مرة أخرى للأسف، وعقدت قرانى على قريب لى فلم يطل ارتباطى به هو أيضا كثيرا، وتم الانفصال بيننا قبل الزفاف بأيام.

وبعد فترة أخرى تزوجت من زميل لى فى المجال الرياضى.. له نفس طموحى وآمالى وتجمع بيننا الاهتمامات المتقاربة، كما كنت اطمع دائما فيمن ارتبط به، فإذا بكل هذه الروابط المشتركة لا تنجح فى إنقاذ سفينة الحياة الزوجية من الغرق.. ويتم الانفصال الثالث فى حياتى بعد قليل.

وعقب الانفصال اضطربت أفكارى، وفقدت تركيزى فى لعبتى وخسرت مكانى فى المنتخب وساءت حالتى المعنوية، وفكرت لأول مرة فى الزواج لمجرد الاستظلال بظل رجل.. وليس كما كنت أرجو لنفسى دائما من أجل الحب والسعادة والميول المشتركة والحياة اللامعة..

وفى غمرة ضيقى بوحدتى بعد وفاة أبى.. وانشغال إخوتى بحياتهم الخاصة.. وسوء حالتى المعنوية بعد الفشل المتكرر فى الارتباط والسعادة، ساءلت نفسى من هو الرجل الذى يمكن أن يقف إلى جوارى فى مثل هذه الظروف ويأخذ بيدى ويعيد إلىّ ثقتى فى نفسى؟

وعلى الفور قفزت إلى ذهنى صورة الشاب الأمين الذى تقدم لى فى عامى الجامعى الأخير ورفضته أكثر من مرة، فلم يضق بى ولم ينقلب على ولم يكرهنى ولم يفقد رغبته فىّ وتمسكه بى.

وتساءلت ماذا يعيب مثل هذا الرجل وهو إنسان هادئ ومتزن ووسيم وشخصيته جذابة ورقيق المشاعر وبار بأهله!.

وتذكرت ما قرأته لك أكثر من مرة فى هذا الباب من أننا لا قيمة لنا إلا عند من يحبوننا ويحرصون علينا ويتوسلون بالحيل للحفاظ علينا. فأعلنت استعداى لقبول الزواج منه، إذا كان مازال راغبا فى الزواج منى، ولم يتردد الرجل الكريم فى التقدم إلىّ مرة أخرى، وتمت الخطبة وأنا لا أشعر تجاهه بالحب.. لكنى آمل فى أن تخلق الحياة المشتركة بيننا حبه فى قلبى ذات يوم..

وانتهت استعدادات الزواج على وجه السرعة.. وتزوجنا، وأنا أرجو الله فى أعماقى ألا يطول انتظارى لميلاد الحب أعواما كثيرة.. فإذا برحمة ربى تدركنى فى الأسابيع الأولى من زواجنا.. وإذا بى أجد فى زوجى كل ما كنت أتمناه فى شريك الحياة من التدين وتقوى الله وحسن المعاملة والحنان والتشجيع المستمر، فيتدفق ينبوع الحب فى قلبى تجاهه.. وأجدنى أكاد احسد نفسى على السعادة التى وجدتها معه.. وأتحسر فى الوقت نفسه على السنوات التى أضعتها من عمرى قبل الارتباط. ولقد مضت الآن على زواجنا السعيد ثلاث

سنوات عامرة بالحب والهناء، رزقنا الله سبحانه وتعالى خلالها بطفلين جميلين.. وأتم علينا نعمته بالنجاح الباهر فى العمل.. وبأداء العمرة مع زوجى الذى أستطيع أن أقول عنه الآن إنه الزوج والحبيب والعشيق والأخ والأب والصديق.

وإنى لأسجد لله شكرا على أن هدانى إلى اليقين، بعد حالة الشك التى تساور كل فتاة مقبلة على الزواج.. وإلى السعادة مع زوجى الحبيب، بعد حالة الوحدة التى عانيتها عقب وفاة أبى وفشلى المتكرر فى الحالات السابقة..

وأشعر الآن شعورا عميقا بالذنب تجاه هذا الإنسان العظيم، الذى أرادنى منذ البداية بإصرار فأنصرفت عنه لجهلى وغفلتى، وأريد أن أذكر كل فتاة بالحديث الشريف الذى يقول: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير» ذلك إن كثيرات لا يفكرن حين يتقدم لإحداهن شاب إلا فى مدى التوافق أو التكافؤ المادى والمعنوى والنفسى والطموح المشترك والمظهر العصرى والملبس.. و«الروشنة» والإتيكيت، وغير ذلك من العوامل.. ولا يفكرون إلا قليلا فى مدى التزام هذا الشاب بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وفى خلقه وقيمه الأخلاقية فتكون النتيجة هى ما نراه كثيرا من حالات الانفصال.

وأما نصيحتى الأخرى فلسوف أستعيرها من العبارة التى

استشهدت بها فى ردك أخيرا على إحدى الرسائل للإمام على بن أبى طالب، وتقول ما معناه «إن من شقاء المرء زهده فى راغب فيه» والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ذكرتنى رسالتك بالأسطورة القديمة التى كتبها الإيطالى جيوفانى استرابلو عن فتاة حالمة رائعة الجمال، تنافس شباب المدينة على طلب يدها وكلهم من فرسان الوسامة و«العصرية» بمقاييس زمنهم، ثم خرج أبوها فى رحلة إلى الغابة وضل طريقه فيها وحل عليه الظلام وخشى على نفسه من الوحوش الضارية، فلجأ إلى قصر مهجور وجده فى الغابة.. فما أن تسلل إليه حتى فوجئ برجل كثيف الشعر بعيد عن الوسامة، يعيش فيه احتجزه فى القصر وسجنه فى إحدى قاعاته.

وبحثت الفتاة عن أبيها طويلا حتى عرفت مقره.. ورفض الشبان الذين كانوا يتنافسون على طلب ودها مساعدتها فى الإفراج عن أبيها خوفا من القصر المجهور وساكنه.. فتوجهت هى إليه والتقت بصاحبه ورجته الإفراج عن ابيها ووافق الرجل على ذلك، ولكن بشرط ان تبقى هى فى القصر بدلا منه، وقبلت الفتاة أن تقدم هذه التضحية من أجل أبيها.. وأفرج عنه وأقامت الفتاة الجميلة الرقيقة فى القصر وتعاملت مع هذا الرجل، فإذا بها تكتشف وراء مظهره

غير العصرى وشعره الكثيف قلبا رقيقا حنونا ونفسا طيبة وروحا تتطلع إلى السعادة فى صبر، فتقبل بنفس راضية الزواج منه وتعيش معه حياتها فى سعادة وأمان وسط دهشة المتنافسين عليها وحسرتهم.. وتتعلم درس التجربة وهو أنه ليس من الحكمة أن تحكم على البشر بمظهرهم الخارجى أو بمدى مسايرتهم لروح العصر..

ومع أن القياس مع الفارق فإن درس الأسطورة يظل صالحا للتعميم على قصتك كذلك.. وهو أننا لا نعرف حقيقة الأشخاص بمظهرهم الخارجى وإنما بالاقتراب منهم.. والتعامل المكثف معهم.

والمشكلة الحقيقية التى أدت إلى تخبطك عدة مرات فى الاختيار قبل أن ترسو سفينتك فى المرفأ الآمن، الذى ينتظرها منذ البداية، هى أن معايير الاختيار لديك كانت خاطئة ومضللة.. كمعيار الحكم على الأشخاص بمظهرهم الخارجى فى الأسطورة القديمة، فقد كانت كلها معايير سطحية تتعلق «بعصرية» الخطيب ومدى مسايرته للموضة وبقية الاهتمامات الشبابية، ولم يكن من بينها كما أدركت أنت ذلك فى النهاية شخصيته وقيمه الدينية والأخلاقيـة وطباعه وحسن معاشرته للآخرين ونوع رؤيته للحياة ومبادئه ومثالياتـه، وهى المعايير الجوهرية التى ينبغى الاختيار على أساسها.. فضـلا عـن المعيار الآخر الذى لا يقل أهمية فى حالتك وهو عمق حبه لك منذ

البداية.. وصدق رغبته فيك على الرغم من زهدك السابق فيه.. ورفضك المتكرر له.. وإيثارك غيره عليه ثلاث مرات متتالية! فكيف عزفت عن مثل هذا الحب العظيم وحرمت نفسك منه كل هذه السنوات؟.

ليس من شك فى أن غياب دور الأم فى حياتك وعجز الأب الراحل عن القيام بدورها فى إرشادك إلى ما فيه صلاح أمرك وافتقادك الأخت الصديقة والمشيرة.. قد أثر على حسن اختيارك لحياتك. وعلى افتقادك المرشد والدليل الذى يهديك سواء السبيل ويجنبك العثرات.

ونحن كثيرا ما نتخبط فى سعينا للسعادة وتضل خطواتنا إليها قبل أن تترفق الأقدار بنا، وتضعنا على الطريق الذى لم نكن نصلح من البداية إلا له..

فكأنما قد شردنا بعيدا فى صحراء التيه لنعرف بالتجربة المرة وسنوات العمر الضائعة.. الطريق الذى كان ينبغى لنا أن نسلكه من الأصل.

كما أننا قد نقبل فى بعض الأحيان بما لم نكن نقبل به من قبل، بدافع الإحباط، أو اليأس من أن نحقق لأنفسنا ما كنا نرجوه لها، فإذا بتجربة الأيام تثبت لنا أن ما قبلنا به متشككين أو يائسين من بلوغ غيره هو الاختيار الأفضل والأمثل لنا.

بل إننا فى بعض الأحيان قد نطلب الأمور بدوافع اضطرارية قد

نخجل من الاعتراف بها لغيرنا.. فيأبى الله سبحانه وتعالى - وهو المطلع على نياتنا الحقيقية - إلا أن يكون أكثر كرما ورفقا بنا.. ويسعدنا بما اضطررنا إليه.. ويرفع عنا ما كنا نستشعره من حرج داخلى بقبولنا له.. ولقد روى الإمام أبو حامد الغزالى أنه لما نفد ما خلفه له أبوه لتعليمه مع أخيه، نصحه صديق الأب الراحل الذى يرعاهما بأن يلتحقا بإحدى المدارس الدينية التى تقدم لطلاب العلم الغذاء والكساء فالتحقا بها وطلبا العلم بها سعيا وراء الغذاء والكساء، فإذا بالغزالى يتفقه فى الدين، ويصبح حجة فيه وإماما من أئمته الأجلاء، ويقول الإمام الغزالى ملخصا هذه القصة كلها:

«أردنا العلم لغير الله.. فأبى إلا أن يكون لله»

وهكذا قد نفعل نحن أيضا فى بعض الأحيان فيكون اختيار الله لنا أفضل من كل ما سعينا له.. وأشرف من كل ما أضمرناه نحن من دوافع وأسباب لهذا السعى، والمهم دائما هو أن يتعامل المرء مع حياته بأمانة وشرف وإخلاص.

وشكرا لك على رسالتك، وأرجو أن يستفيد بها غيرك كما تأملين وأن يشاركوك دروسها، وأهمها فى تقديرك هى أن لكل سفينة شراعا إذا فقدته تلاعبت بها الأمواج وعجزت عن الوصول إلى غايتها، وأن شراع كل إنسان الذى يحميه من الحيرة والتخبط والضياع هو الالتزام بتعاليم دينه وروحه وقيمه ومبادئه.. كما اهتديت أنت فى النهاية إلى ذلك.



الأسباب الجارحة!

أكتب إليك رسالتى هذه لكى ترشدنى إلى الحل السليم. فأنا شاب فى الثلاثينيات من العمر، بدأت قصتى بعد أن تخرجت فى كلية نظرية، وعينت مدرسا بإحدى مدارس محافظة الجيزة، وبدأت اتطلع للمستقبل.

وفى تلك الفترة وقع نظرى بالصدفة على فتاة جميلة لها قوام ممشوق فخفق قلبى لرؤيتها.. وسألت عنها واغتبطت حين وجدت أخى الأكبر يعرف عائلتها، فأفضيت إليه برغبتى فى التقدم إليها.. ولم يتردد أخى فى الاستجابة.. وعلى الفور حدد موعداً مع والدها واصطحبنى معه لمقابلته فى لقاء التعارف المبدئى، واستقبلنا والد الفتاة بترحاب وتبادلنا الأحاديث التقليدية.. وبعد قليل دخلت علينا الفتاة، فاضطربت دقات قلبى واشتدت حتى خشيت أن يسمعها الآخرون.

وبعد فترة من الجلسة المشتركة انسحب الأب وأخى إلى الصالة ليدعا لنا فرصة للحديث وتبادل الأفكار وتركانا لفترة ثم رجعا إلينا..

فما أن دخلا حتى نهضت الفتاة بعصبية واستياء وغادرت الغرفة وهى تقول لوالدها أمامنا: ما هذا يا أبى الذى أحضرته لى؟ ونزلت العبارة الجارحة علينا كالصاعقة؟ وارتبك الأب وحاول التسرية عنا لكنى غرقت فى خجلى وعرقى، وزاد من ألمى وجرحى أن سمعت من الصالة صوت ضحكات إخوة الفتاة الساخرة.. وخمنت أنها تروى لهم ما حدث.. وتقول لهم إن أباها احضر لها شابا لا يملك شيئا وفوق ذلك أسمر «غطيس»، فيضحكون وتضحك معهم.. وتمنيت لو كانت الأرض قد انشقت وبلعتنى. وتمالكت نفسى بصعوبة.. وغادرنا البيت ونحن نتعثر فى خطواتنا.

وبالرغم من كل ذلك فلقد أصررت على أن أعرف أسباب الرفض.. وكلفت أخى بسؤال والد الفتاة، فإذا به يؤكد لى ما تخيلته.. وهى أنها قد رفضتنى لأنى أسمر البشرة وإمكاناتى ضعيفة.. وحاول أخى أن يهون علىَّ الأمر فقال لى إن الفتيات كثيرات، وإننى سوف أجد من تتمنانى زوجا لها... إلخ.. فهززت رأسى مؤيدا وتماسكت أمامه، ثم دخلت غرفتى وأغلقت بابها علىَّ وانفجرت باكيا رغما عنى.. فلقد شعرت بجرح الكرامة والإهانة.. والإساءة إلىّ من فتاة لم أرد بها إلا الخير..

وتجاهلت الموضوع بعد ذلك مع أخى.. أو تظاهرت بذلك وتجنبت رؤية هذه الفتاة بكل طريقة ممكنة لكيلا يتجدد الجرح..

وبعد بضعة شهور واتتنى الفرصة للسفر للعمل بإحدى الدول العربية، فسافرت إليها وواجهت تجربة الغربة ومشاكلها وانشغلت بحياتى الجديدة. واستغرقت تجربة الغربة خمس سنوات، علمت خلالها من أخى أن الفتاة قد خطبت مرتين وفسخت خطبتها لأسباب لا أعلمها..

وأنتهى عملى بالخارج ورجعت إلى أسرتى وعملى.. وقد استقرت أحوالى المادية وحجزت شقة تمليك، وبدأت أفكر فى البحث عن نصفى الآخر قبل أن يسرقنى الزمن.. فإذا بأخى يحثنى على التقدم مرة أخرى للفتاة التى رفضتنى من قبل لأنها خالية وسوف ترحب بى.. وترددت فى قبول الفكرة بعض الشىء.. ثم سألت نفسى ولماذا لا أفعل وقد تحسنت أحوالى المادية وزالت عقبة مهمة من طريقى إليها، وقمنا بزيارة أسرة الفتاة مرة ثانية.. ودخلت علينا الفتاة حجرة الاستقبال فلم ينتفض قلبى هذه المرة وتشتد ضرباته لرؤيتها.. وإنما لاحظت أن ملامح الفتاة قد تغيرت وزال عنها بعض كبريائها السابقة.. فشعرت فى داخلى بالانتصار.. وفكرت لماذا لا أتزوجها وانتقم منها لإذلالها السابق لى؟.

وبالفعل مضيت فى هذا الطريق.. وتمت الخطبة، وأنا لا أعرف هل أنا سعيد بالفتاة نفسها أم سعيد بكسر نفسها وبرغبتها فىّ بعد رفضها السابق لى للأسباب الجارحة التى رويت لك عنها. ومضينا

نستعد للزواج وأنا لا أفكر إلا فى إملاء شروطى على خطيبتى. وأرتب فى ذهنى لأن افرض عليها إرادتى بعد الزواج، فلا تزور أهلها إلا حين أشاء.. ولا تغادر البيت إلا بإذنى وبعد الرجاء و... هكذا.

ثم تزوجنا وتعاملت معها بطريقة عادية، ولكن خالية من أى تدليل من جانبى.. وتعمدت خلال الأسابيع الأولى من الزواج أن أخرج مع أخى وزوجته بدونها وأتركها وحدها فى البيت.. والعجيب أننى وجدتها لا تعترض على ذلك ولا تعاتبنى على شىء ففررت أن أمضى معها على هذا المنوال.. إلى أن جاء يوم وفوجئت بها تشكو من بعض الأعراض، وتطلب منى عرضها على الطبيب. واصطحبتها فى المساء إلى أحد الأطباء فما أن فحصها حتى ابتسم وهنأنى على حمل زوجتى، وطلب منها الاستسلام للراحة وتناول بعض الأدوية.. وغادرنا العيادة وأنا مضطرب الفكر وموزع بين الابتهاج بالخبر وبين الانزعاج له! فلقد كنت أريد أن أشفى غليلى منها، قبل ان تصبح أما لابن أو ابنة لى، ويتعين علىَّ المحافظة عليها لكى ترعى مولودنا..، والمشكلة هى أن نفسى لم تُشف بعد من الإهانة التى لحقتنى منها بمعايرتها لى ببشرتى السمراء وضعف إمكاناتى، فهل أنسى لها كل شىء وأنسى سنوات الغربة والمرارة وأكف عن معاملتى السيئة لها.. أم هل أسرحها بإحسان وأتركها لحالها لكى تخمد النار المتقدة داخلى؟.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ليس من الأمانة أن يرتبط إنسان بفتاة لكى يتشفى فيها أو ينتقم منها أو يمارس عليها إحساسا زائفا بالانتصار!.

والزواج بنية الانتقام ليس زواجا صحيحا.. لأن الزواج الصحيح هو ما يقدم عليه الطرفان بنية «التأبيد» أى الاستمرار إلى نهاية العمر.. والرغبة المخلصة فى السعادة وإسعاد الطرف الآخر.

فلماذا أقدمت إيها الشاب على الارتباط بزوجتك ولما تخل نفسك بعد من الموجدة عليها؟ ولماذا لم تتطهر من هذه المشاعر الكريهة تجاهها قبل الارتباط بها، أو تنصرف عنها إلى غيرها من الفتيات اللاتى لا تنطوى لإحداهن على مثل هذه المرارة.. والضغينة؟.

إن مشكلتك الحقيقية ليست فى رفض زوجتك لك قبل ٥ سنوات ولا فيما توهمته أنت من ضحكات السخرية منك يوم تقدمت لطلب يدها، ولا هى حتى فى الأسباب «الجارحة» التى نقلت إليك عنها كمبرر لرفضها لك، وإنما هى فى تقديرى فى حساسيتك المغالى فيها تجاه لون بشرتك الذى لا يعيبك ولا يعيب أحدا ولا يتوقف أمامه عاقل يثق فى نفسه وفى جدارته بكل خير فى الحياة..

ولهذا فأنت لم تغفر لزوجتك إشارتها إلى لون بشرتك فى أسباب رفضها لك فى المرة الأولى. مع أنها لم تكن فى تقديرى هى السبب

الرئيسى للرفض فى ذلك الحين.. وإنما كان السبب الجوهرى هو ضعف إمكاناتك المادية، وتشكك فتاتك فى قدرتك على الوفاء بمتطلبات الزواج فى المدى القريب، بدليل أنك حين أصبحت قادرا على تكاليفه، لم يقف لون بشرتك عائقا دون قبولها لك.. وأنت هو انت لم تتغير ولم تتبدل، وإنما تغيرت بعض ظروفك المادية إلى الأفضل.. فماذا يعنى ذلك سوى أن الأسباب المادية التى لا تعيب هى أيضا أحدًا كانت هى الحائل بينك وبين فتاتك فى الماضى وليس أى شىء آخر؟.

ثم إن إفكار البشر تتغير من مرحلة إلى مرحلة من العمر.. ولقد كانت فترة السنوات الخمس الفاصلة بين الخطبتين كافية لأن تكتسب فتاتك فهما أعمق للحياة ونضجا أكبر وخبرة أفضل بما يستحق التوقف عنده وما لا يستحق، فضلا عما اكتسبته من خبرة التجربة الفاشلة فى الخطبة مرتين وما أضافه إليها ذلك من استعداد أفضل للتفكير الواقعى والعملى.. لقد أصبحت أكثر نضجًا وأكثر إدراكًا لحقائق الحياة.. ولا عجب فى ذلك حتى ولو كنت قد فسرت أنت ذلك بأنها قد انكسرت شوكتها وتخلصت من كبريائها السابقة.. لأنه تغير إيجابى فى صالحها وليس ضدها.. وشتان ما بين ما تعتبره أنت انكسارًا لها الآن.. وبين تهورها وخفة تصرفها حين عبرت عن رفضها لك فى المرة الأولى بتلك الطريقة القاسية، التى آذت مشاعرك ومشاعر شقيقك وأحرجت أباها أمامكما..

فلماذا لا تشجع هذه التطورات الإيجابية فى شخصيتها وتتجاوز عن خطئها الذى سقط بمضى المدة.. وكان المأمول ألا تتقدم إليها مرة أخرى إلا إذا كنت قد تجاوزت عنه وغفرته لها؟ إذا كنت فى حاجة إلى الاعتذار عنه بعد كل هذه السنوات، فإن قبولها لك فى المرة الثانية هو اكبر اعتذار عملى عنه؛ فإن لم يكن ذلك كافيا وهو كاف عند العقلاء فلماذا لا تعاتبها فيما قالته عنك وتتصافيان.. لكى تخلص لك السعادة معها؟.

إن رفض فتاة لأى شاب يتقدم إليها لأية أسباب تراها، حتى ولو كانت خاطئة ليس مما ينقص من قدره ولا من جدارته، كما لا ينقص من قدر أى فتاة عزوف أى شاب عن الارتباط بها لأسباب رآها.. لأن من لا يصلح لهذا يصلح لذاك.. ومن يتنافر مع هذه قد يتناغم مع تلك، فما معنى أن تستأدى زوجتك ـ التى قبلت مشاركتك حياتك وأملت فى السعادة معك ـ ثمن إحساسك أنت المغالى فيه ببعض سماتك الشخصية، أو ثمن ذكرياتك المريرة عن الغربة وعنائها؟.

لقد علمت الحياة زوجتك أن تكون أكثر تعقلا فى التعامل مع الواقع، وليس من الرحمة أن تجلدها «بخفتها» السابقة إلى نهاية العمر. ونصيحتى لك هى أن تتخلص أولا من إحساسك المرضى بعدم الجدارة الذى يفسد عليك طويتك، وأن تؤمن عن حق بأهليتك

لأن تكون إنسانا مرغوبا ومحبوبا وقادرا على نيل احترام الآخرين.. ولسوف يتطهر صدرك تلقائيا من أفكار التشفى والانتقام من شريكة الحياة..

أما الانفصال عنها الآن، وبعد أن اضطربت أحشاؤها بجنينها منك فهو «خيانة» لا تليق بك لهذا الجنين نفسه.. وانتقام أكثر خسة ليس من زوجتك وحدها، وإنما من نفسك أنت وكذلك مولودك القادم الذى لا ذنب له فى سوء طوية أبيه.. ولا فى سوء اختيار أمه لعباراتها عند رفضها لأبيه قبل ٦ سنوات أو أكثر من مجيئه للحياة.

والعفو فى النهاية هو الأقرب للرجولة من الانتقام، كما قال ذات يوم حكيم الهند غاندى.

* * *

الذكريات الأليمة!

قرأت رسالة «الانتقام الوهمى» للفتاة التى روت عن قسوة أمها، وكيف تفتق ذهنها المشوش عن رغبتها فى الانتقام من الأم بسوء سلوكها مع الشبان خارج نطاق الأسرة، وكيف كانت تشعر بالتشفى فى أمها حين تخطئ كأنما تنتقم من سوء معاملتها وجفائها لها.

وقرأت رسالة «الانتقام الإيجابى» للقارئة التى روت أنها عانت من ظروف مماثلة. فكان رد فعلها لقسوة الأم عليها هو التفوق والالتزام الخلقى وتحرر الإرادة، دون خروج على الأعراف والتقاليد..

ولقد أثارت الرسالتان تأملاتى واستدعتا ذكرياتى الأليمة.. فلقد نشأت فى أسرة محدودة الموارد بين عدد من الشقيقات والأشقاء.. وكنت الابنة الوسطى وأقل البنات جمالا وأكثرهن هدوءًا.. فمن بعدى كانت الابنة الصغرى الجميلة المدللة التى أتلقى نيابة عنها السب والضرب والتعنيف، إذا أخطأت هى بدعوى أننى كان ينبغى لى أن أحميها وأمنعها من الخطأ.

ومن قبلى كانت الأخت الكبرى التى ينبغى لى احترامها.. والتى

يتفادى الأب الاحتكاك بها أحيانا، وإن لم تنج بالرغم من ذلك من قسوته، ولأمر ما لم يستوعبه عقلى الصغير وقتها كان علىَّ وحدى أن أحترم الجميع، وأن أخشاهم وأهرول لتلبية طلباتهم.. فإن تقاعست عن ذلك أو أخطات، كان عقابى الحبس فى الحمام أو الضرب بالخرطوم أو تكتيف الأيدى والأرجل وضربى ضربا مبرحا.

ولم يكن نصيب إخوتى من قسوة أبى علينا قليلا، لكنى كنت دائما صاحبة القدر الأكبر منها.. فلقد حطم فينا أبى سامحه الله كل معانى الكرامة الإنسانية، وجعل منظرنا حين نذهب إلى مدارسنا مثيرا لدهشة من يرانا.. فالعيون تحيطها الهالات السوداء والوجوه متورمة وبها آثار للجروح.. والأذرع بها كدمات.

وفى كل يوم يختار أبى إحدانا لتكون ضحيته التى يحطم عليها أثاث البيت، ويشعر «بالانتصار» حين يتناثر دمها ويضع قدمه على عنقها وهى ملقاة على الارض فى شبه إغماء.. كأنما يقول لنا أنا ربكم الأعلى، حتى صرنا نخاف يده ونظرة عينيه ووقع قدميه على الأرض.

أما أمى فكانت تقف مما يصيب أبناءها على يدى أبيهم موقف المتفرج، وبعد كل علقة ساخنة ينالها أحدنا، تدخل عليه الغرفة وتقول له فى شماتة لم أستطع حتى الآن أن أفهم دواعيها: هل ارتحت الآن؟ وعدا ذلك فلقد كانت ترفض غسل ملابسى أو

مساعدتى وأنا طفلة فى تمشيط شعرى، وتكره أن ترانى نائمة مستريحة فتفتعل لى عملا أؤديه ويرهقنى، وتمزق لى كتبى الدينية التى كنت أشتريها من مصروفى، وتمنعنى من الخروج من البيت إلى أى مكان - ولو إلى الطبيب - لأن هناك دائما عملا ينبغى لى أن أقوم به دونها ودون إخوتى، كما كانت تسافر مع إخوتى وتتركنى وحدى مع شقيق لى لديه امتحانه لأخدمه، أو مع أبى المرتبط بعمله لكى أرعاه وأتعرض لأكبر قدر من أذاه وعقابه.

ولم يكن أبى وأمى جاهلين بالرغم من هذه القسوة الشديدة منهما علينا بل كانا متعلمين، ولقد شغل أبى عدة مناصب قبل أن يترك الوظائف ويصبح تاجرا.

ومضت بنا الأعوام وانطويت على نفسى.. وركزت كل جهدىٍ وتفكيرى فى دراستى، وتقدمت فيها بالرغم من قسوة الظروف المحيطة بى من كل جانب.. وحصلت على شهادتى الجامعية بتفوق.. وارتديت الحجاب على غير إرادة أمى، التى أشبعتنى سخرية ولوما لذلك.. وحصلت على شهادة فى الكمبيوتر.

وكبر الإخوة.. وتمردوا على الأب القاسى.. والأم الجافة، وبعد أن كان الإخوة يرتجفون رعبا من أبى ولا يجسرون على معارضة أمى فى شىء خوفا من أن تشكوهم للأب.. أصبحت هذه الأخت تكيل السباب لأمى إذا أغضبتها فتتجنبها الأم؛ خوفًا من سلاطة لسانها

وتتكتم سوء أدبها معها عن أبى حتى لا تزداد الابنة تمردا. وأصبحت تلك الأخت شديدة العصبية تثور وتحطم الأشياء، وتتولاها نوبات من الهياج الهسيترى حتى ليأتى الجيران على صوت صياحها.

وأصبح هذا الأخ يهرب من البيت ويشوه صورة أبيه فى أعين الآخرين، وذلك بتمرده على إرادة الأب والأم، ويصر على الزواج من فتاة يرفض الأبوان اقترانه بها لعدم ملاءمتها له من الناحية العائلية والاجتماعية.. وذاك يرهق أباه بمطالبه المادية لكى ينفق على ملذاته وأصدقاء السوء.. إلخ.

وهكذا ثار الجميع على الأبوين حتى أصيب أبى بالسكر وأصيبت أمى بالضغط ومضت السنون، وتزوج الأبناء جميعا ما عداى وانصرفوا إلى حياتهم الخاصة، بعد أن مارسوا مع الأب كل وسائل الابتزاز والإجبار لينفق على زواجهم كما أرادوا.

وبقيت مع أبى وأمى عدة سنوات أخدمهما.. ولا حديث لهما إلا عن جحود الأبناء وتنكرهم وسوء طويتهم، ونسيا خلال ذلك أنى أحتاج إلى ملابس ومطالب أساسية لا يوفرانها لى حتى أصبح مظهرى كالشغالة. ولا لشىء إلا لأنى لم أتمرد عليهما ولم أقف فى وجهيهما صارخة ومهددة، كما فعل كل إخوتى إلى إن جاء الفرج من السماء التى طالما ابتهلت لها، والتقيت بإنسان على خلق ودين أحبنى بصدق وأحببته بإخلاص، ولم أتوقف أمام رزقه القليل

وإمكاناته المحدودة.. وإنما قررت أن أعمل معه يدا بيد، وأن أساعده على بناء حياتنا المشتركة.

ولا يتسع المجال هنا لكى أروى لك ما لقيت من أمى وأبى قبل أن يقبلا كارهين بزواجى منه.. ولكن يكفى أن أقول لك إن أمى قد قالت لى يوم الخطبة أنها لم توافق عليها إلا لأنه لن يأتينى من هو أفضل منه!.

وإن يوم شراء أثاث عش الزوجية كان يوما حزينا اعتصرت قلبى فيه الحسرة؛ لأنها اشترت لى من الأثاث «ما قل ودل» بالرغم من قدرة أبى المالية على شراء ما هو أفضل منه.. وحتى شعرت بالحرج من زوجى.. وطأطأت رأسى خجلا ونحن نضع الأثاث فى المسكن، أما هو فإنه لم يعر هذا الامر أى اهتمام، وبدا سعيدا بى وفخورا. وتزوجنا.. وشعرت ربما للمرة الأولى فى حياتى بالأمان والسلام والاستقرار.. وأحسست بكرامتى الشخصية.. وبأننى إنسانة «عزيزة» على الغير.. وتستحق التقدير والحب الاحترام.

وبعد عام من الزواج أنجبت طفلا.. خفق قلبى بالحب والعطف عليه من اللحظة الأولى التى وقعت فيها عليه عينى.. وتعجبت كيف لقلب أم أو أب أن يقسو على من أنجبه.. وتتمثل فيه بعض روحه ودمه ولحمه.. لقد نذرت لله حين ولد طفلى هذا ألا أضربه ذات يوم أو أقسو عليه.. أو أهينه أو أشعره بالذل والحرمان.. وأن

أشعره دائما بالعزة والكرامة والسعادة.. وأقدمه للحياة إنسانا سويا محبا لله وللبشر والخير والإنسانية.. وخاليا من العقد النفسية والذكريات الأليمة.. ذلك أننى مازلت حتى الآن أشعر فى بعض الأحيان أننى فى حاجة للذهاب إلى الطبيب النفسى؛ لكى يعالجنى مما ترسب فى أعماقى من عقد وأمراض غرسها فى أبى. فمازلت حتى الآن ابكى كلما قرأت فى بريدك قصة يقسو فيها أم أو أب على ولده..، ولقد كتبت رسالتى هذه لك لكى يعرف الجميع أن القسوة لا تثمر سوى التمرد والجموح.. والعصيان.. والأمراض النفسية.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

من الفطرة السليمة أن يحاول المرء دائما أن يجنب أعزاءه ما عانى منه من آلام وأحزان، تجرع كؤوسها فى حياته الشخصية وخبر مرارة قسوتها من قبل.

فإذا كان الصحيح هو أن من عاش طفولة طبيعية سعيدة وحظى بعطف الأبوين وحسن رعايتهما له، يكون مرشحا غالبا لمواجهة الحياة بنفسية سليمة وقدرة أكبر على التواصل الصحيح مع الآخرين، ويميل فى أغلب الأحيان لأن يكرر تجربة أبويه اللذين رحماه صغيرا مع أبنائه، فإنه ليس من المستغرب كذلك أن يصهر الألم من حرمته اقداره من مثل هذه النشأة السليمة فيرحم صغاره ويشفق عليهم من

تكرار تجربته المؤلمة . . ويحرص على أن يعوض نفسه فيهم عما حرم منه من سعادة واستقرار وأمان.

غير أن ذلك لا ينبغى له أن يصرفنا عن التحذير دائما من أضرار القسوة العقلية والبدنية على الأبناء فى طفولتهم وصباهم، لأن العائد الأكبر لهما هو تشويه القيم والمعايير لدى الأبناء . . واختلال الشخصية والترشيح للعجز عن التواصل السليم مع الحياة، ويكفى لتأكيد ذلك أن من يكابد مثل هذه القسوة المفرطة فى طفولته وصباه . . قد يظل طوال العمر يعانى من بصماتها غير المرئية على نفسيته وشخصيته ونظرته للحياة والآخرين، وقد يرشحه ذلك إذا تضافرت معه عوامل أخرى للانحراف النفسى والخلقى . . فإن نجا من هذه المضاعفات بقيت له الذكريات الأليمة تطارده من حين لآخر وتجدد أحزانه إذا تلقت مثيرات جديدة تستدعيها من غياهب النسيان، كما يكون الحال معك يا سيدتى حين تقرئين عن تجربة ابن أو ابنة مع قسوة أحد الأبوين.

والحق هو أن خير ما يقدمه الآباء والأمهات لأبنائهم هو طفولة سعيدة وتربية رشيدة، تستهدى بالقيم الدينية والأخلاقية فى تنشئتهم، وترشحهم لأن يكونوا بشرا أسوياء فى المستقبل.

وهذه الطفولة السعيدة الآمنة والتربية الرشيدة ليستا هبة يتفضل بها

الآباء والأمهات على الأبناء، وإنما هما واجب دينى وأخلاقى عليهم تجاههم، ماداموا قد جاءوا بهم إلى الحياة مع عالم الغيب والشهادة.

والمؤسف حقا هو ألا يستوعب بعض الآباء والأمهات جسامة هذه المسئولية، غافلين عن أن الأبناء هم ودائع ثمينة استودعهم الله سبحانه وتعالى إياها، ولسوف يسألون أمامه هل حفظوها أم ضيعوها.. ففى الحديث الشريف الذى رواه الإمامان أن الرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها.

وفى الحديث الشريف الذى رواه ابن حيان أن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته.

ولقد روى الرواة أن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه قد شهد احتضار حفيد له من فاطمة رضى الله عنها، ففاضت عيناه بالدمع، وتعجب لذلك سعد بن عبادة وقال له: ما هذا يا رسول الله؟!.

فأجابه: هذه رحمة جعلها الله فى قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.

فكيف يحق إذن لأب ألا يتعامل مع بناته الضعيفات وأبنائه الصغار سوى بالضرب والجرح والإذلال ووطء الأعناق وإسالة دمائهم حتى

لتلطخ ثيابهم ويمضون إلى مدارسهم ووجوههم متورمة ودامية؟ وماذا ينتظر مثل هذا الأب المفرط فى قسوته على أبنائه قسوة تكاد تكون سادية ومرضية من هؤلاء الأبناء، حين يشبون عن الطوق ويتحررون من أسر الخوف؟

لقد قال لنا رسول الله صلوات الله وسلامة عليه: أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم - وليس من إكرام الأبناء القسوة المفرطة عليهم ولا التلذذ برؤية دمائهم تسيل على أجسامهم.

وهذه القصة تؤكد لنا ما نؤمن به دائما من أن أدب المقهور مع قاهره ليس أدبا حقيقيا، وإنما هو «تقية» لاتقاء أذاه وكظم للغيظ والمشاعر السلبية إلى أن تجئ اللحظة الملائمة للانفجار وشق عصا الطاعة.

كما أن رسالتك هذه يا سيدتى تلفت أنظارنا إلى مشكلة أخرى حقيقية من المشاكل الأسرية، التى لا تحظى بكثير من الفهم والدراسة، وهى مشكلة الابن الأوسط بين عدد من الأبناء. ووجوب فهم نفسيته وتفادى أخطاء التعامل معه التى تورثه غالبا الشعور بالنقص وقلة نصيبه من رعاية الأبوين واهتمامهم، فهذا الابن يشعر فى كثير من الأحيان بأنه الابن المهمل من بين أبناء الأسرة؛ لأنه لا يحظى بالتدليل الذى يناله الابن الأصغر بحكم سنه، ولا بالاحترام الذى يفوز به الابن الأكبر بحكم وضعه فى الأسرة،

فيصبح من جراء ذلك أكثر حساسية من إخوته وأكثر شعورا بالنبذ وعدم الاعتبار.. وأكثر شكوى من قلة نصيبه من الرعاية والاهتمام، والعدل كل العدل هو أن يشعر الأبناء جميعا بحظوتهم المتساوية لدى آبائهم وأمهاتهم أيا كان ترتيبهم فى الأسرة.

وفى النهاية فإنى أقول لك يا سيدتى: إنه كما تكون ذكرياتنا السعيدة زادًا لنا نستمد منه العون على الصمود أمام آلام الحياة حين تجئ.. فإن ذكرياتنا المريرة قد تكون كذلك دافعًا لنا لأن نحرص على السعادة المتاحة لنا.. وعلى حمايتها من الانهيار، فاجعلى من ذكرياتك المؤلمة دافعا إيجابيا لك للاستمساك بسعادتك الحالية والحرص عليها، ودافعا أكثر نبلا وإنسانية للحرص على الرفق بطفلك وحسن رعايته، وتجنيبه كل ما عانيت منه وخبرت مرارته من قبل.

***

الليل الطويل؟

منذ سنوات وأنا أريد أن أكتب لك قصتى لأشكر نعمة ربى بالتحدث عنها.. ولأقول لك إننى كثيرًا ما وجدت فى قصص حياة أبطال بابك الذين تعاطفت معهم ما أعاننى على الصمود للظروف الصعبة.. واجتيازها.. أبدأ بأن أقول لك إننى وشقيقتى من هؤلاء الذين سميتهم أنت فى بعض تعليقاتك «بأبطال الحياة» الذين يجدون أنفسهم فى مواجهة ظروف شديدة الصعوبة، فيكافحون كفاح الأبطال لاجتيازها دون أن يفقدوا شرفهم أو قيمهم الدينية والأخلاقية.. ودون أن تتسمم روحهم بالكراهية للحياة والبشر، واستطيع أن أقول إننا كذلك والحمد لله.. ونرجو من الله العلى القدير أن نظل كذلك إلى نهاية العمر..

فأنا شاب فى السابعة والعشرين من عمرى.. عشت طفولة عادية بين أبوين طيبين وأخت تصغرنى بعامين، وكان أبى موظفا بمصلحة حكومية وأمى ربة بيت طيبة لا تعمل، ونعيش فى شقة من ثلاث غرف بإيجار قديم فى الدور الأرضى فى أحد المنازل بحى شعبى..

وكانت حياتنا تمضى كغيرنا من الصغار نذهب إلى المدرسة.. ونرجع فنلعب فى الشارع مع الرفاق بعض الوقت ونهرول إلى البيت مع ظهور أبينا عائدا من عمله.. ونلتف حول مائدة الطعام ونستمتع بشرب الشاى بعد الغداء.. ثم نجلس لأداء واجباتنا المدرسية تحت عيون أمنا، ويدخل أبى لينام.. ثم يصحو فيجلس على الكنبة التى تقع تحت نافذة الصالة.. يرقب المارة فى الشارع أو يخرج إلى المقهى إلى أن تزلزلت حياتنا فجاة بوفاة أبى، دون سابقة مرض أو إنذار وهو فى أوائل الأربعينات من عمره.. وأنا فى سن العاشرة وأختى فى سن الثامنة..

وتكدرت أيامنا.. وران عليها الحزن والاكتئاب.. وافتقدنا أبانا الطيب.. وإحساس الأمان الذى كنا نحس به فى وجوده.. وواجهت أمى الحياة فى خوف وساعدها خالى الوحيد على إنهاء إجراءات المعاش، الذى تبين أنه مبلغ ضئيل لقصر فترة خدمة أبى، وعرفنا جفاف الحياة ونقص النقود فى سن مبكرة، وتوقفنا منذ وفاة أبى عن شراء أى ملابس جديدة، وأصبحنا نرتدى ملابس أبناء خالنا القديمة.

ولما كان هو أيضا موظفا محدود الدخل.. فلقد كان لا يشترى لأبنائه الجديد من الملابس إلا بعد أن تكون ملابسهم قد بليت تماما.. فكانت أمى ترتقها.. وتقلبها.. وتصبغها أحيانا لكى نستطيع ارتداءها..

وبالرغم من ذلك فلقد مضت بنا الأيام. . وكان يكفينا برغم كل العناء والحرمان أن نجتمع حول أمنا كل ليلة فى المساء لنسمع منها ذكرياتها عن أبينا وكيف تعرفت به وكيف تزوجته. . وأحلامه لنا بأن ننجح ونتفوق فى دراستنا ونحصل على شهاداتنا العليا، ونعمل بمراكز مرموقة ونتزوج ذات يوم ويصبح لكل منا أسرته السعيدة.

لكن حتى هذه الحياة الجافة الآمنة استكثرتها علينا الأقدار فيما يبدو، فبعد قليل بدأت أمى تشكو من الآلام والأوجاع الشديدة، وبدأ خالى يطوف بها على المستوصفات وبدأت تحتجز فى المستشفيات بالأسابيع الطويلة. . فننتقل نحن للإقامة فى بيت خالنا الضيق والمزدحم بمن فيه وننام على الأرض فى حجرة الصالون، ونواجه مشكلة عسيرة فى الانتظام فى الدراسة والمذاكرة. . وزيارة أمنا. . إلخ. .

وبعد عدة شهور من الاضطراب رحلت أمنا الغالية عن الحياة ولحقت بأبينا، وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى وأختى فى الثالثة عشرة، وبكيناها حتى جفت دموعنا. . وشعرنا بعد رحليها بأننا قد أصبحنا فى العراء لاشىء يسترنا أو يحمينا من صواعق السماء.

وبعد فترة الحزن الطويل. . وبعد أن لَمسنا نحن أيضا معاناة أسرة خالنا فى حياتها، تم الاتفاق على أن نرجع أنا وأختى للإقامة فى مسكننا الخالى على أن يزورنا خالى من حين لآخر، ليطمئن علينا،

وقال لنا خالى وهو يدارى دمعه إنه لولا ضيق مسكنه ووجود بنات لديه فى مثل سنى لما رضى أبدا بأن نفارقه ونرجع لبيتنا، وتقبلنا نحن حياتنا باستسلام وبلا غضب من أحد وخففنا عن خالنا حرجه وأحزانه..

وغادرنا هو فى أول ليلة لنا وحدنا فى شقتنا، بعد أن زود مطبخنا ببعض التموين والأطعمة وأعطانى مصروف الأسبوع، وشدد علينا ألا نفتح الباب لأحد فى الليل مهما تكن الظروف، وكرر علىّ كلمته التى راح يرددها لى منذ رحيل أمى، وهى إننى قد صرت رجلا ومسئولا عن حماية أختى، وأننى جدير بالقيام بهذه المسئولية ووافقته على ما يقول وأنا أتمنى فى أعماقى أن أقول له ولماذا تحكم علىّ أقدارى بأن أكون هذا «الرجل» فى سن الخامسة عشرة.. وأمثالى يلهون فى الشوارع ويتمتعون بحماية الأهل وحنانهم.. لكنى لم أتكلم.. ولم أعترض لأنه لا ذنب لأحد فى ظروفنا.

وبعد إغلاق الباب وراء خالى انفجرت أختى فى البكاء.. وراحت تولول وتتساءل: كيف سنعيش.. وماذا سنفعل وحدنا.. ومن يحمينا.. فطمأنتها وهدأت روعها، وقلت لها إن الله سبحانه وتعالى لن يتخلى عنا؛ لأننا لم نرتكب ذنبا ولم نؤذ أحدا، وكان أبونا رجلا طيبا يصلى ويصوم وكانت أمنا كذلك.. ونحن أيضا نصلى ونصوم منذ الصغر، وأقسمت لها أننى سأحميها من كل سوء وسأكرس حياتى

لرعايتها. . وأننا سنتعاون معا على مواجهة كل الصعاب ولن «ننفضح» بين الناس أبدا بإذن الله.

ونظمنا حياتنا بالمصروف الأسبوعى الذى يعطيه لنا خالنا من معاشنا عن أبينا وأصبحنا نرجع من المدرسة، فنتعاون على إعداد الطعام وتنظيف الشقة والمذاكرة ثم نتلازم طوال الوقت، فإذا خرجت لشراء شيء اصطحبت أختى معى، وإذا أرادت هى زيارة صديقة لها اصطحبتها حتى باب بيتها وحددت لها الموعد الذى سأرجع فيه لاصطحابها للبيت، وإذا زارتها بعض زميلاتها أغلقت عليهن باب غرفة أمنا. . وجلست على الكنبة فى مجلس أبى حتى تنتهى الزيارة. .

وقرَّب اليتم والوحدة والخوف من كل شيء بيننا، فأصبحنا لا نفترق إلا فى ساعات الدراسة. . وكل أسبوع يزورنا خالنا ويطمئن على أحوالنا أو يدعونا للغداء معه. .

واجتزنا عامنا الدراسى الأول بعد وفاة أمنا بصعوبة، وفى إجازة الصيف خرجت أبحث عن عمل لأوفر لنا بعض نفقات العام الدراسى الجديد، وعرضت نفسى على صاحب المغسلة القريبة لأعمل لديه فى كى الملابس. . لأنه عمل لا يحتاج إلى خبرة طويلة سابقة. . فطلب منى أن أعمل فى البداية كصبى يجئ إليه بالملابس من عند العملاء. . وقبلت ذلك دون غضاضة، وأصبحت أطوف

على البيوت أطرق أبوابها وأسأل عن «المكوة» وأحمل الملابس المكوية لأصحابها.. وأرجع بالأجرة لصاحب المغسلة، وجمعت فى نهاية الشهر من البقشيش نحو أربعين جنيها، سعدت بها وأعطيتها لأختى لتشترى لنفسها بعض احتياجاتها وفاجأنى الرجل فى نهاية الشهر بأن أعطانى أربعين جنيها أخرى، وقد كنت أظنه سيعتبر البقشيش أجرى الوحيد عن عملى معه.

وانقضت شهور الصيف، وبدأنا العام الدراسى الجديد وانقطعت عن العمل.. لكن ما ادخرته من شهور الصيف نفد سريعا وتجهمت الحياة أمامنا.. فعدت لصاحب المغسلة ورجوته أن يسمح لى بالعمل معه ٤ ساعات كل مساء فى كى الملابس، ووافق الرجل تقديراً لظروفى، وأصبحت أخرج من المدرسة فأتناول طعامى خطفا مع أختى ثم اهرول إلى المغسلة، وأرجع منها فى الثامنة مساء فأذاكر دروسى وأجلس مع أختى إلى أن ننام، وحصلت على الثانوية العامة بمجموع متوسط ونصحنى خالى بالاكتفاء بهذا القدر من التعليم والبحث عن عمل، لكن أين أجد مثل هذا العمل بالثانوية العامة.. فاستخرت الله وقررت أن أواصل الدراسة مهما تكن العقبات، وشجعتنى أختى على ذلك.. وساعدنى أن صاحب المغسلة كان لا يتأخر عنى إذا طلبت منه قرضا لأواجه به أى طارئ فيعطيه لى ويقسطه علىّ من أجرى، والتحقت بكلية التجارة شعبة المحاسبة..

وواجهت أنا وأختى الحبيبة أياما شديدة العناء.. وكلما ضعفت مقاومة أحدنا شد الآخر من أزره.. وهون عليه وذكّره بآمال أبينا وأمنا فينا، ويطول الحديث عن الأزمات الخانقة التى اعتصرتنا طوال سنوات الجامعة، لكن يكفى أن أقول لك إنه لولا أن خالى كان يقتطع الإيجار الشهرى من المعاش ومبلغا لفاتورة الكهرباء قبل أن يسلمه لنا لكنا قد فقدنا مأوانا الوحيد ولأمضينا معظم أوقاتنا فى الظلام.. وعدا ذلك فلقد كنا نلاطم الحياة وحيدين وتلاطمنا ونتحايل على تدبير ثمن الكتب أو نستعيرها، لتوفير الرسوم.. وتأمين بعض الملابس المستعملة التى تستر مظهرنا.

وفى ظل هذه الظروف، التحقت أختى بكلية البنات وفعلت المستحيل لكى أوفر لها مطالبها، وأحافظ لها على الحد الأدنى من مظهرها.. وحرمت نفسى من الضروريات لكى تجد أجر مواصلاتها للكلية، وذكرتها حين التحقت بالجامعة بأننا أيتام ولا سند لنا فى الدنيا سوى عملنا وأخلاقنا، وأن علينا أن نحافظ على سمعتنا أكثر من غيرنا لأن ضعفنا قد يغرى بنا الطامعين.. وطمأنتنى هى إلى أنها تعى ظروفنا جيدا.

ومضت أعوام الجامعة عليها وعلىّ فى عناء شديد.. وفى عامى الجامعى الأخير توسط لى أحد زملاء الكلية، ربما لأنه قد لمس رقة حالى وتفوقى فى مادة المحاسبة، للعمل بعد الظهر فى مكتب

للمحاسبة يملكه عمه.. فعملت به مقابل مكافأة صغيرة لا تزيد عن مكافاتى عن العمل فى كى الملابس، ولكنى رحبت بذلك لاكتساب الخبرة، وعسى أن أجد موضعا لقدمى فى هذا المجال بعد التخرج.

وفى هذا المكتب التقيت بزميلة متدربة مثلى، علمت فيما بعد أنها من أقارب صاحب المكتب اتخذت منى موقفا عدائيا من البداية ولاأدرى لماذا بالرغم من التزامى بالأدب مع الجميع وراحت تستفزنى من حين إلى آخر، وأنا أحاول بكل جهدى تفاديها حتى لامنى زميل آخر على ضعفى معها، إلى أن جاء يوم وفوجئت بها تقول لى فى لهجة استفزازية أمام الزملاء: لماذا يبدو مظهرك كالسعاة ولماذا لا تهتم بملابسك.. ألست تقبض مكافأة مثلنا؟.

فتضرج وجهى بالاحمرار وانعقد لسانى.. وسمعت زميلى ينهرها فتمالكت نفسى ورجوته ألا يشتبك معها.. وقلت لها بعد جهد جهيد إننى بالفعل أقبض مكافأة مثلها، لكن ظروفى قاسية.. وما دام مظهرى يزعجها إلى هذا الحد فإننى سوف أريحها منه ومنى إلى الأبد، وغادرت المكتب راجعا إلى بيتى، ورويت لأختى ما حدث فبكت ورجتنى ألا أحزن لذلك، وسوف يعوضنا الله عما انقطع من رزقنا برزق غيره إن شاء الله.

وأمضيت يومين بلا عمل سوى الدراسة.. وفكرت فى العودة إلى المغسلة مرة أخرى.. وقبل أن أفعل فوجئت بزميلى الذى ثار من

اجلى فى المكتب يطرق علىّ الباب ويدعونى لمقابلة صاحب المكتب، واستقبلنى الرجل عاتبًا علىَّ تركى العمل دون الرجوع إليه، وطيب خاطرى وأكد لى أنه راض عن عملى، ويتنبأ لى بمستقبل طيب ويريد منى الاستمرار معه بعد التخرج، ثم أنهى المقابلة بأن أبلغنى بأنه قد رفع مكافأتى، ابتداء من هذا الشهر، وأمر بأن تصرف لى كذلك خلال الشهرين اللذين سأنقطع فيهما عن المكتب للاستعداد للامتحان، وشكرته بحرارة، ودعوت له بطول العمر والصحة والستر فى الدنيا وفى الآخرة، وانصرفت راضيًا.

وتغيرت معاملة هذه الفتاة معى إلى النقيض منذ ذلك الحين.. وراحت تعتذر لى عن سابق إساءتها لى، وتقول إنها أساءت فهم صمتى وعزلتى وعزوفى عن مشاركة الزملاء فى اهتماماتهم، وأرادت أن تزيل الحواجز بيننا فقالت لى إنها من الفرع الفقير فى أسرة صاحب المكتب، وإنه سمح لها بالعمل فى مكتبه كمساعدة لأسرتها.. وبالتالى فإن ظروفها لا تختلف كثيرا عن ظروفى، وشكرتها على كلماتها وتعاملت معها بنفس خالية من الموجدة، فلم تمض فترة أخرى حتى أصبحنا صديقين حميمين..

ولم تمض عدة أسابيع حتى أعترفت لى بحبها وإعجابها بى وبأخلاقى واستقامتى ووجدتنى أنا أيضا، أعترف بحبى لها وإشفاقى عليها فى الوقت نفسه من ظروفى القاسية.. ولكنها لم تأبه لذلك،

وأكدت لى وقوفها إلى جانبى حتى النهاية.. وصارحت أختى بما حدث، فوجدتها هى الأخرى تشجعنى على الارتباط بها، وتخفف عنى الصعاب وتطلب منى ألا أجعل من ظروفنا سببًا لحرمانى من السعادة التى نحتاج إليها اكثر من غيرنا.

وتخرجت فى كليتى وتخرجت زميلتى وثبت أقدامى فى المكتب، أما هى فقد نجح قريبها فى تعيينها فى شركة استثمارية، وسألتنى عن خطتى للمستقبل، فقلت لها إننى لن استطيع الإقدام على الارتباط الرسمى بها إلا بعد تخرج أختى واطمئنانى عليها.. وتحسن ظروفى، وتوقعت أن تثور علىّ وتنهى علاقتنا، ففوجئت بها تؤكد لى استعداداها لانتظارى بضع سنوات أخرى.

وتخرجت أختى بتفوق والحمد لله وعملت كمدرسة بعقد فى إحدى المدارس الخاصة إلى أن يجئ دورها فى التعيين وتحسنت ظروفنا بعض الشىء..

وجاءنى ذات يوم من يطرق بابى ويقدم نفسه لى ويطلب يد شقيقتى منى، واستمهلته حتى أعرض الأمر عليها.. فوجدتها مرحبة به، وسألتها عما إذا كان يعرف ظروفنا جيدا، فأجابت بالإيحاب وتحريت عنه فوجدته شابا طيبا متدينا ومن أسرة صالحة ويعمل بالتدريس، فحددنا موعدا للخطبة.. وطفرت عينى بالدمع وأنا أرى أختى سعيدة من قلبها فى ليلة خطبتها، وإن كنت قد أشفقت عليها

من وحدتها فى هذه الليلة بلا أب ولا أم ولا أخت ولا شقيق سواى، ولولا وجود خالى وزوجته لشعرت بفراغ الدنيا كلها من حولنا فى هذه المناسبة السعيدة.

وخلال عامين، كانت شقيقتى قد زفت إلى عريسها بعد معجزات سماوية وتسهيلات إلهية، لإعداد جهازها وسترها فى نظر زوجها وأسرته بقدر الإمكان، ولم يزعجنى أبدأ أننى قد كبلت نفسى بأقساط شهرية لسداد باقى ثمن جهازها المتواضع.. إلى جانب ما تدفعه هى من أقساط.. وإنما شعرت بأننى أؤدى واجبى تجاهها وأنفذ وعدى لها بحمايتها حين خلت الدنيا علينا بعد وفاة أمنا.

وبترشيح من صاحب مكتب المحاسبة الفاضل، عملت محاسبا بشركة كبيرة إلى جانب استمرارى فى العمل معه بعد الظهر، ووجدت نفسى بعد أربعة أعوام من التخرج، ومع سداد آخر قسط من جهاز أختى قادراً على الاهتمام بحياتى الخاصة، فأبديت رغبتى لفتاتى فى التقدم لأهلها.. ووجدت كل شىء معدا ومرتبا من جانبها.. ولم يفاتحنى أحد فى أى شروط مادية.. وتركت لها هى أن تحدد ما تراه مناسبا فى ضوء إمكاناتى التى تعرفها جيدا، وتم كل شىء خلال شهور وجددت الشقة القديمة.. واستقبلت جهاز العروس الجديد.

وفى ليلة الزفاف وعقد القران.. وجدت أختى لا تسعها الفرحة وعلمت من فتاتى أنها ذهبت إليها فى الليلة السابقة.. ليلة الحنة

حين اجتمعت بعض الصديقات فى بيت العروس يغنين ويصفقن ويرقصن، وأنها استدرت دمعها رغما عنها بفرحتها الطاغية.. وبحديثها المستمر عنى وكيف أننى أبوها وأخوها وأمها وكل شىء لها فى الحياة، وكيف أننى شاب طيب وسوف أسعدها لأننى أحبها ولا أحمل فى قلبى إلا الحب ولا أعرف الحقد أو الكراهية لأحد.

وفى الحفل البسيط الذى أقمناه فى مسكنى احتفالا بالزفاف، جلست إلى جوار عروسى، وأمامنا الأهل وأختى وزوجها الطيب.. فسرحت بفكرى رغما عنى إلى الوراء، وتذكرت أول ليلة أغلق علينا فيها باب هذه الشقة نفسها وحدنا بعد انصراف خالى وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى وأختى فى الثالثة عشرة.. والمستقبل مظلم أمامنا ومجهول.. وخوف الدنيا كله يتجمع فى داخلنا.. وإحساسنا بالانكسار والضياع والغلب الأزلى يطغى على كل مشاعرنا.. وتساءلت: هل كنا فى تلك الليلة الكئيبة نتصور أننا سوف نجتاز كل الصعاب التى اعترضت طريقنا، ونصل ذات يوم إلى بر الأمان فتتخرج شقيقتى وتعمل وتتزوج، وأتخرج أنا وأعمل وأتزوج كغيرنا من الشباب؟ وهل لو كنا توقفنا يومها واستهولنا الطريق الطويل الذى ينبغى لنا أن نقطعه لكى نتغلب على ظروفنا.. هل كنا وجدنا الشجاعة والقدرة على السير فيه حتى نهايته؟ لقد أصبح لكل منا الآن حياته وأسرته وعمله واجتزنا محنتنا بإيماننا بالله سبحانه

وتعالى، وبأنه لا يتخلى عن الضعفـاء والمساكين وعمن يعتصمون بدينهم وخلقهم.

وقد كتبت لك رسالتى هذه لكى أقول لقرائك إن لكل عناء نهاية، وإنه بالصبر والكفاح والإيمان بالله والتمسك بالدين والأخلاق يعبر الإنسان كل المحن والابتلاءات.. والحمد لله أننا قد عبرنا محنتنا دون أن نخسر أنفسنا أو ننحرف، أو نفقد حبنا للحياة والبشر والخير، أو تتشوه نفوسنا بالحقد والمرارة.. وأرجو أن تقول ذلك لقرائك كما تفعل دائما.. كما أرجو أن تقول لمن يجدون أنفسهم أمام ليل طويل من العناء لا يبدو له فجر قريب فى نظرهم إن الليل مهما يطل فلابد له من نهاية، ولا بد لكل سائر على الطريق الطويل أن يصل ذات يوم إلى غايته، والمهم هو ألا ييأس الإنسان من رحمة ربه.. وألا يتخلى عن مبادئه ودينه، ولعلك لاحظت أننى لم أشك فى رسالتى من شيء، فإذا كان لابد من الشكوى فلعلى أقول لك هو أن مشكلتنا الوحيدة الآن هى فى افتراق اختى عنى بعد هذا العمر الطويل من التلازم والامتزاج.. وفى «خوفها» المرضى علىّ من أى عارض يصيبنى، ولو كان لفحة برد بسيطة، وخوفها المماثل على زوجها من كل شيء.. وترديدها دائما أنها قد احتملت الكثير والكثير، ولم تعد لديها أية طاقة على أن تفقد أحداً آخر ذات يوم.. ورغبتها لو استطاعت فى أن تشد على «الغطاء» كل ليلة لتطمئن إلى

أننى أستمتع بالدفء، وزوجتى تحبها كثيرا وتتعاطف معها وتتفهم دوافعها.. وقد تكشفت لى هى الأخرى عن نبع آخر من الحنان.. والخوف من المستقبل، وأصبح هاجسى الآن هو أن اطمئن كلا منهما على أن كل شىء على ما يرام.. وأن الله لن يتخلى عنا أبدا بإذن الله.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لقد قلت أنت يا صديقى بقصة كفاحك مع شقيقتك كل ذلك وأكثر وبأبلغ مما استطيع أنا أو غيرى أن يقوله.. فقلت لنا إن الليل الطويل مهما يطل فلابد له من فجر جديد يبزغ معه ضوء الشمس، حاملا الأمل والعزاء للمجهدين.

وقلت لنا ما قاله لنا الشاعر الإنجليزى ذات يوم: إذا كان الشتاء قد جاء فليس الربيع ببعيد، وأكدت لنا أن طول الطريق وعناءه، لا ينبغى لهما أن يردا أحدا عن السير الحثيث فيه؛ حتى يصل إلى غايته ذات يوم حتى ولو توجع من عنائه.

وقلت مع الإمام على بن ابى طالب: آه من بعد السفر وقلة الزاد ووحشة الطريق، قلت لنا كل ذلك بأبلغ الكلمات وأبسطها.. وذكرتنا أن أعظم الأعمال إنما تتحقق بالمثابرة والدأب والاستمرار فى بذل الجهد بلا كلل، مع الإيمان بالله والتمسك بالقيم الأخلاقية والدينية والثقة فى النفس وفى عدالة الأهداف التى يسعى المرء إليها.

فإذا كان ثمة ما أستطيع أن أضيفه إلى ذلك فهو فقط أن الأهم من بلوغ الغايات المنشودة فى الحياة هو أن نسلك إليها السبل الشريفة لكيلا نفقد خلال سعينا إليها ما لا يعوضنا عنه شيء، حتى ولو بلغنا فيما بعد قمم الجبال وهو روح الإنسان ودينه وشرفه وقيمه الأخلاقية وصفاء نفسه وخلوها من الأحقاد والمرارات، وإيمان المرء بخيرية الحياة والبشر على الرغم من كل العناء، فهذا هو الفوز العظيم حقا فى مثل هذه الملاحم الحياتية. .

ومن يصمدون لأعاصير الحياة بغير أن يضلوا الطريق أو ينحرفوا عنه، هم حقا من لا يتخلى عنهم ربهم ويجزيهم الله عن صبرهم وحرمانهم وصمودهم خير الجزاء، وهم أيضا من يقول أحدهم لصاحبه كلما اشتد العناء كما جاء فى الذكر الحكيم. . «لا تحزن إن الله معنا» وينطبق عليهم ما جاء فى الكتاب المقدس من أن «كل الأشياء تعمل معا للذين يحبون الله».

فأما فراقك لأختك بعد طول تلازم وامتزاج فهو سنة الحياة التى لا مبدل لها، وما البعد المكانى بمفرق فى النهاية بين القلوب التى جمع الله بينها برباط متين إلى يوم الدين.

وأما هلعها المرضى عليك وعلى زوجها من كل شيء فأمره مفهوم وهو صدى للخوف القديم المستقر فى النفس من الغد، وبصمة غائرة من بصمات الشقاء واليتم المبكر وفقد الأبوين وانعدام النصير ومواجهة الحياة وحيدة مع شقيقها الصبى الحائر بلا سند ولامعين.

ونحن كلما عظم حبنا لأحد اشتد خوفنا عليه من أن نفقده ذات يوم.. غير أنه «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» ولسنا نملك فى النهاية إلا أن نضرع لله سبحانه وتعالى آناء الليل واطرف النهار أن يحفظ علينا من نحبهم ومن لا نستشعر السعادة إلا وهم يضيئون كالأقمار الساطعة سماءنا ولسوف يتراجع هذا الخوف المرضى فى نفس شقيقتك تدريجيا مع ترسخ أسباب الشعور بالأمان فى حياتها.. ودواعى الاطمئنان للمستقبل الواعد بإذن الله.

فأما زوجتك وقصة تعرفك الغريبة بها، فلقد ذكرتنى بما يقال أحيانا من أن بعض أعمق قصص الحب وأكثرها نجاحا واستقرارا كانت قد بدأت فى البداية بمواقف عدائية، كتلك التى اتخذتها منك زوجتك حين تعرفت عليها.

ولقد روى لنا الرواة أن الشاعر الأموى جميل الذى اشتهر بحبه لبثينة وغزلياته الرائعة فيها، كان قد تعرف عليها فى البداية فى موقف عدائى مماثل فى واد اسمه «بغيض»، تبادلا فيه السباب بسبب الخلاف على ورود الماء، ثم لم يلبث هذا العداء أن تحول فى قلب جميل إلى عشق سارت بذكره الركبان.. وقال هو عن ذلك:

وأول مـــا قـــاد المـــودة بيننـــا

بوادى بغيــض يــابثين سبــاب

و قلنا لها قـولا فجـاءت بمثله

لكـل كــلام يابثين جــواب!

فعسى أن يخلد حبكما فى القلوب خلود حب جميل وبثينة.. وعسى أن تسعد أنت وشقيقتك وشريكا حياتكما بأيامكم الحاضرة والمقبلة بإذن الله.. وعسى الله سبحانه وتعالى أن يجزل لكم جوائز السعادة والوفاق والأمان فى حياتكم بإذن الله.

* * *



النظرة الصحيحة

قرأت رسالة «قسوة الكلمات» للشاب الذى امتحن بالمرض اللعين، وقسا عليه طبيبه الأول فى حديثه إليه عن مرضه حتى سد عليه أبواب الأمل فى الحياة، وباشر علاجه لدى طبيب آخر حتى أتى نتائجه واسترد صحته، واستشار طبيبه فى أمر الزواج فنصحه به بلا تردد، وكتب إليك يستشيرك هل يصارح من يتقدم إليها بتاريخه المرضى أم يكتمه عنها خوفا من رفضها له لهذا السبب. وأريد أن أقص على هذا الشاب المؤمن قصتى الشخصية ليستفيد بتجربتى فيها.

فأنا سيدة شابة عمرى ٢٥ عاما تقدم لى بعد تخرجى شاب يكبرنى بست سنوات ويعمل بالخارج، ولم ألتق به من قبل.. وإنما كان لقاؤنا الأول فى بيتنا حين تقدم لطلب يدى، والغريب أننا قد شعرنا نحن الاثنين بتقارب روحينا من الوهلة الأولى، وتمت الخطبة الرسمية، وكان الاتفاق هو أن يرجع من مقر عمله بعد عام لعقد القران والزواج، وخلال هذا العام ازداد تقاربنا معا من خلال الخطابات والشرائط والمكالمات.

وقرب نهايته شعر خطيبى ببعض الآلام فصبر عليها إلى أن رجع إلى مصر.. ثم عرض نفسه على الأطباء، فإذا بحظه السيئ يوقعه فى طبيب مماثل للطبيب الأول فى رسالة «قسوة الكلمات» وإذا بهذا الطبيب لا يترفق به فى إبلاغه بحالته الصحية، وإنما يزيد على ذلك بأن يصدمه بقوله إن حياته لن تطول أكثر من ستة أشهر، وتقبل خطيبى الصدمة واستسلم لقضاء ربه، لكنه لم يسترح لهذا الطبيب واتجه إلى طبيب آخر، فهدأ روعه.. وبدأ فى علاجه وأجرى له جراحة لاستئصال ورم خبيث بالقولون، وبعد انتهاء الجراحة، وعلم أسرتى بحقيقة المرض قررت فسخ خطبتى لهذا الشاب.. وتمسكت أنا بالخطبة واستكمال المشوار معه، خاصة أنه إنسان متدين وكريم الخلق ويشهد له الجميع بذلك، كما أنه لاذنب له فيما امتحنته به الأقدار.

وأقنعت خطيبى ببدء العلاج الكيماوى والإشعاعى على الفور، واكتملت الجلسات كلها بسلام وحققت هدفها والحمد لله.. لكن أسرتى عادت من جديد للإصرار على فسخ الخطبة خوفا علىَّ من المجهول.. وكثر الكلام فى بيتنا عن الحياة والموت وتأثير الإشعاع على الإنجاب ولم تجد محاولاتى مع أسرتى فى تغيير موقفها، مع إيمانى بالكامل بأن كل شيء بأمر الله وحده، وبأنه كم من إنسان سليم معافى قد يموت فجأة، وكم من مريض قد يظن به البعض الهلاك يعمّر حتى يلقى وجه ربه فى شيخوخته... إلخ.

ولم أستطع فى النهاية تحمل ضغط أسرتى على للنهاية وتم فسخ الخطبة وسافر خطيبى إلى مقر عمله، وحاولت أنا مع أسرتى لمدة عام كامل استئناف الخطبة من جديد، وظللت على اتصال بأخته أطمئن منها عليه.. وأبلغها بمحاولاتى مع أهلى، وبعد عام رجع إلى مصر.. وحاولت الاتصال به مرة ثانية.. وواصل هو من جديد جهوده مع أسرتى، وأثبت لها بالتحاليل والتقارير الطبية شفاءه التام وسلامته.. واستمرت المحاولات المضنية من جانبه وجانبى بضعة شهور إلى إن وافقت أسرتى فى النهاية على زواجنا.

فلم نضيع وقتا بعد أن ضاع منه الكثير، وسارعنا بعقد القران وتم الزواج منذ ١٥ شهرا وها نحن الآن فى منتهى السعادة الزوجية، وقد منّ الله علينا بزيارة بيته الحرام، ويعلم الله سبحانه وتعالى عمق حبى لزوجى وسعادتى معه، وعمق حبه لى وسعادته معى، وقد مضت الآن على العملية الجراحية ثلاث سنوات كاملة، ولم يشعر زوجى بأى ألم أو تعب والحمد لله.

وأقول لكاتب رسالة «قسوة الكلمات» لاتنظر وراءك ولا تتردد فى الزواج، ولكن لابد لك من أن تصارح من سوف تتقدم لخطبتها بحقيقة مرضك السابق، وألا تخفى عنها شيئا، فقط عليك أن تختار ذات الدين والأخلاق لكى ترعى الله فيك، وتنظر إلى الأمر النظرة الصحيحة ولا تظلمك بشىء لايد لك فيه.. وادعو الله سبحانه

وتعالى له فى النهاية بأن يرزقه الزوجة الصالحة، وأن يمن على الجميع بنعمة العافية والسعادة إن شاء الله.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

هناك قلة من الأطباء كطبيب كاتب رسالة «قسوة الكلمات» الأول وطبيب زوجك الأكثر قسوة، ينطبق عليهم قول الشاعرة الأديبة عائشة التيمورية فى رثاء ابنتها: «إن الطبيب بطبه مغرور!» فهم ينسون أحيانا فى غمار تعاملهم مع الحقائق المادية المجردة أن الموت والحياة من أسرار الخالق العظيم وحده، وأن سلامة الأبدان لا تطيل الأعمار عن أجالها المسجلة فى اللوح المحفوظ، ولا سقمها يقصرها عنها طرفة عين، ولأن «الكلمة» قد تجرح وتصيب فى مقتل بأكثر مما قد تفعل السنان الحادة فى بعض الأحيان، قال أمير الشعراء أحمد شوقى منبها لذلك:

إن الحقـائـــق قـــاسيـــة

فـــاستعيروا لهـــا خفـة البيان

أى استعيروا لها رقة الكلمات.. والرحمة الإنسانية والتلطف فى الخبر بدلاً من قسوته ومصادمته للمشاعر. وفى كل الأحوال فما من طبيب على وجه الأرض قادر على أن يزيد من عمر أحد ساعة واحدة أو ينقصه عن أجله المقدور شيئا. فلماذا هذه «العنجهية

العلمية» لدى البعض أحيانا، ولماذا يكاد بعض هؤلاء القلة من الأطباء يعاملون المرضى، وكأن مرضهم جرم شخصى لهم «ارتكبوه» عن إرادة واختيار، فلا يترفقون بهم وهم يتحدثون إليهم عن أمراضهم أو يتحدثون إليهم، كما يفعل المحقق أو القاضى مع الجانى وهو يواجهه بجنايته، دون أن يجد فى نفسه ما يدعوه لأن يتجمل معه أو يترفق به.

إننى أحييك ياسيدتى الشابة على إيمانك العميق بربك وتسليمك بأنه كم من سليم معافى، يلقى وجه ربه حين يجئ أجله، وكم من مريض سقيم يطول به العمر إلى أن تحين ساعته..

ولقد قال لنا أبو العلاء المعرى من قبل مؤكدا هذه الحقيقة البدهية:

كـــم بُودرتْ غـــادةٌ كعـــوبٌ
وعمِّرت أمهـــا العجـــوز
يجـــوز أن تبطـــئ المنايـــا
والخلـــد فى الـــدهر لا يجوز

وإذا كان الطب يأتى بالشفاء بأمر الخالق العظيم فى بعض الأحيان، فإن الحب أيضا يصنع المعجزات.. ويزيد من احتمالات الشفاء ويهيئ الظروف المثالية لاسترادد العافية ومقاومة أسباب الهلاك.

ولقد لاحظ الأطباء مرارا أن معدلات الشفاء فى الأمراض المستعصية ترتفع لدى من يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويتقبلون أقدارهم برضا تام.. ويتمسكون بروح الأمل والتفاؤل بالشفاء وينعمون فى حياتهم بالحب والسعادة والاستقرار العائلى، الذى يزيد من تمسكهم بالحياة ورغبتهم فى الشقاء.

ولا شك فى أنك وزوجك الشاب الأمين تنعمان بمثل هذه الظروف الدافعة لتمام الشفاء والتمسك بالحياة وتذوق جمالها، والدفاع عنها ضد أسباب الفناء والدمار دائما بإذن الله.

فهنيئًا لك يا سيدتى نظرتك الصحيحة للأمور، واختيارك الموفق لزوجك وحياتك الشخصية وسعادتك.. وشكرا لك على نصيحتك الغالية لكاتب رسالة «قسوة الكلمات» وتمنياتك الطيبة له وللجميع.

* * *

الأوسمة!

ثلاثة أيام فقط هى الباقية من عمرها فعليك الاستعداد لذلك، قالها لى الطبيب الهمام أستاذ المخ والأعصاب بعد أن رأس مجموعة من الأطباء متنوعى التخصصات، قامت بفحص أمى، وهو يدس فى يدى روشتة طبية بها أدوية، يرهق ثمنها ميسورى الحال وليس فقط محدود الدخل.

ولم أخف دموعى وأنا أرد عليه بأنه لن يستطيع أن يزيدها نفسا لو أراد إذا هجم القضاء، وكل ما أطلبه لهذه السيدة العظيمة هو أن تلقى من الرعاية ما تستحقه على الأقل كسيدة أفنت من عمرها أكثر من أربعين عاما فى مجال التمريض وتخفيف آلام المرضى.

واشتريت لأمى الأدوية المطلوبة وعرجت على مقابر العائلة وتحسست البوابة باكيا وأنا أتطلع لتلك الأيام الثلاثة المقبلة.

فأراد الله بنا خيرا وعاشت أمى بكل حبها وبركة وجودها بيننا أكثر من ألف وأربعمائة يوم بعد تلك الأيام الثلاثة.

وأراد لنا الله أن ننعم بفرصة أخرى من الحياة مع أمى، فكأنما قد بعثها الله بعد موتها لنهنأ بها، وذلك رغم عذابات المرض والشلل النصفى الذى كان نتيجة خطأ جراحى قبل الحوار المذكور، ووقتها طلب منا أن نسارع بلفها فى بطانية وهى فى غيبوبتها لنهرب بها فى جنح الليل من المستشفى حتى تموت فى منزلها، وعندما أبيت قالوا عنى إنى ابن عاص، وسوف أعرضها للبهدلة والتشريح حين يحم القضاء، وعندما واصلت الرفض وقاومت خروجها على تلك الصورة فتح لى الله جلت قدرته أبوابا ما كنت أدرى بوجودها، فضلا عن قدرتى على الوصول إليها.

ومكثت أمى بالإنعاش أكثر من شهرين استردت خلالهما وعيها وقدرتها على الكلام وتناول الطعام، وإن بقى شقها الأيمن فى حالة موات، ولم تفلح معه محاولات العلاج بالمستشفى أو المنزل فيما بعد.

وعاشت أمى راضية بقدرها وسعيدة بالتفافنا حولها متفقدة لمن يغيب منا عنها، متزنة فى عقلها ووعيها وإدراكها الطيب للأمور، وكانت مستشارنا النفسى والاجتماعى والتربوى فى كل ما يلم بنا وملجأنا إذا احتجنا إلى الحنان والعطف ممن يعطى دون مقابل.

ولأننى ابنها الاكبر ولوفاة أبى المبكرة رحمه الله، فقد كنت بالنسبة لها اكثر من ابن، وتغلبنا بالحب على الآلام فكنت أخرج معها للتنزه

على شاطئ النيل القريب من منزلها بمصر القديمة حيث أدفعها بمقعدها المتحرك، ونقضى الوقت فرحين منتشين متسامرين، وأعود لأتركها فى رعاية شقيقتى المتزوجة معها بالشقة نفسها فتتكفل بأمورها وتنعم بصحبتها، على وعد منى بلقاء فى اليوم التالى، ولا يمر يوم دون لقاء ودون قصة جميلة يمكن أن تروى.

وعقب افتتاح مترو أنفاق شبرا ولأن شبرا مسقط رأسها. فقد استضفتها عدة أيام بمنزلى وكانت لنا نزهة جميلة فى محطات المترو ذات المصاعد الكهربائية حيث استقللنا المترو، وكنا نصعد فى كل محطة ونخرج منها ونتجول بين طرقاتها وشوارعها واستعيد معها ذكرياتها بتلك الأماكن، ثم نعود للمحطة لنستقل القطار إلى المحطة التالية صعودا ونزولا من محطة مسرة إلى كلية الزراعة، ولكن توقفنا فى الأخيرة التى أعجبت بها أمى رحمها الله؛ لكونها مرتفعة وفوق معبر حوائطه زجاجية وتظهر أسفله كلية الزراعة بخضرتها الرائعة.

ولقد حبانى الله بزوجة محبة رضيت بأن تكون فى ترتيب أولوياتى الثالثة بعد أمى وبعد أطفالى الأربعة، وكانت إذا ما وجدت منى تعبا أو مرضا لا تشفق على، وإنما تدفعنى دفعا للذهاب لأمى مذكرة إياى بأن فى ذهابى لها الشفاء والنجاة، وأن فى تقاعسى عنها الشر والبلاء.

لقد كانت قصة رائعة يا سيدى عشتها مع أمى وحمدا لله مازالت

ذكرياتها الجميلة تغلب آلام الشوق وحرقة الفراق، ولقد قلدتنى أمى خلالها أرفع وسامين:

الأول حين أفاقت من غرفة الإنعاش وحدثتنى عن أن المرضى من حولها والممرضات والأطباء يحسدونها علىَّ لفرط اهتمامى بها وشراسة مقاتلتى من أجلها، حين طلب منا الاستسلام لما قدره الأطباء، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

أما ثانى الأوسمة فهو حين كانت فى غيبوبة موتها، التى امتدت ثلاثة أيام فشرعت شقيقتى المقيمة معها تسألنى كيف سنتصرف إذا ما نفذ سهم القضاء، فطلبت منها الصمت حتى لا تسمعنا أمى فأشارت أختى إلى حالتها فقلت لها إن أمى معنا تنعم بنا وننعم بها، وأنها تسمعنا ثم توجهت بالكلام إلى أمى طالبا منها أن تكذب هذه الابنة بأن تطبع على خدى قبلة بالرغم مما هى فيه من غيبوبة، واقتربت بوجهى من فمها فإذا بها تضم شفتيها، وتمنحنى الوسام الرائع قبل رحيلها بيوم واحد، وهى فى غيبوبة شبه كاملة.

ولقد دفعنى لأن أكتب هذه الكلمات إليك ما قرأته فى رسالة النظرة الصحيحة التى رفضت كاتبتها تحذير الأطباء من الارتباط بمن أحبّتَه بدعوى أن مرضه سوف يقضى عليه خلال ستة أشهر، فتزوجته على بركة الله وشفاه الله بأمر ربه وطالت عشرتها الجميلة له.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

وأنعم بها حقا وصدقا من أوسمة أيها الصديق، فهى ليست أوسمة، وإنما هى بعض مفاتيح الجنة ونعم عقبى الدار، وأية أوسمة أرفع وأنفع للإنسان فى دنياه وأخراه من رضا الأبوين، ودعائهما الصادق له بالستر والكرامة والأمان.. وأى حصن أو حجاب يحتمى وراءه المرء من عاديات الأيام أقوى من هذا الحصن المكين، فهنيئا لك ما نعمت به من صحبة والدتك حين جزم «الجازمون» بأن ليس ثمة حياة، وهنيئا لك رضاؤها عنك وفخرها بك، واطمئنانها بين يديك.. وترقب جوائز السماء السخية لك فى الدنيا، مع ما يدخره لك ربك عنده بإذن الله.

* * *


مدير الشركة

السند المنهار!

هل تتذكرنى؟ إننى القارئة الشابة التى تعمل موظفة بإحدى الهيئات وكتبت لك منذ ثلاثة أعوام أن رئيسى المباشر رجل متزوج وله أبناء أصغر منى قليلا، وأنه قد عرض علىَّ أن يتزوجنى زواجا عرفيا سريا، وراح يغرينى بقبوله بدعوى أنه سوف يكون لى سندا فى العمل وفى الحياة، وسوف يحمينى من أية مشاكل أتعرض لها فى عملى، فلما رفضت هذا العرض المهين خاصة أن له سوابق من هذا النوع فى دائرة العمل، راح يطاردنى ويلح على حتى اضطررت لتهديده بأننى سوف أبلغ زوجته.

وانتهى الأمر بأن علمت زوجته بالفعل بالقصة، ولكن عن غير طريقى، فراح يتوعدنى بأننى سوف أدفع ثمن ذلك غاليا، ويكيد لى المكائد فى العمل.. ويدبر لى المشاكل حتى تعرضت لمتاعب عديدة، وراح هو فى كل مرة يظهر أمامى بريئًا من ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب، كأنما يقول لى بغير كلام: لقد رفضت «السند» الذى كان يستطيع حمايتك من مثل ذلك، فتحملى إذن ثمن الرفض.. إلخ.

ولقد اختتمت رسالتى إليك وقتها بأن طلبت منك أنت وقراؤك أن ترفعوا أيديكم إلى السماء بالدعاء من أجلى على رئيسى الظالم وعلى كل ظالم جبار يستأسد على الضعفاء، ونشرت رسالتى بعنوان «السند» وقلت لى فى ردك مما قلت: ولماذا لانشرك معنا فى هذا الدعاء الجماعى رجال الرقابة الإدارية؟.

وأريد الآن أن أبلغك بتطورات قصتى فأقول لك إنه بعد نشر رسالتى اتصلت بى إحدى الجهات الرقابية، فى الوقت نفسه الذى تمادى فيه رئيسى المباشر فى ظلمه وفى تصيد الأخطاء وتلفيق الجزاءات لى ولغيرى، وفى قمة يأسى من العدل فى الحياة قررت قبول الزواج من أول شخص مناسب يطرق بابى، بعد أن كان الرفض هو مبدئي السابق، فإذا بالسماء تهدينى زوجا رائعا خلقا ودينا وطبعا، فكأنما قد خلق لى من البداية فى فهمه لشخصيتى وطباعى، حتى لقد تذكرت قول أحد الصالحين «من رفض شيئا فى الحرام رزقه الله خيرا منه فى الحلال».

وسعدت بحياتى الزوجية وتلمست فيها العزاء عن معاناتى فى الوظيفة، وانطويت على نفسى فى العمل، فلا أحاول الاحتكاك برئيسى.. ولا أرد على الإيذاء بغير الدفاع عن نفسى، وتجنب أى أخطاء يمكن أن يتصيدها لى، فهل تعرف ماذا فعلت الحياة به؟ لقد سلط الله سبحانه وتعالى عليه إحدى زوجاته السريات السابقات فى

العمل، وهيأ لها من ساعدها على جمع عدد كبير من المخالفات المالية له، وإن كان بعضها مما يعد فى عملنا عاديا، وما كان يطبق علىَّ خلال فترة اضطهاده لى من تحقيق وجزاءات طبق عليه، وأحيلت المخالفات الأخرى التى يصعب التجاوز عنها إلى النيابة، وانتهى الأمر بفصله هو وزوجته السرية، ووجدتنى أبكى تأثرا بانتقام العادل الجبار سبحانه وتعالى، وتقدمت لرئيس الهيئة بطلب لرفع الجزاءات التى وقعت علىَّ ظلما وعدوانا، فقيل نقلا عنه أنه يعلم أن هذه الجزاءات خاطئة، لكنها قد حولت إليه من الشئون القانونية مستوفية للشروط، ولقد سقطت بمضى المدة القانونية، فهتفت بأنها لن تسقط عند الحاكم العادل سبحانه وتعالى، فهل يتعظ الظالمون.. وكل من ينسى الله ويستغل موقعه فى إيذاء الغير؟.

لقد استجاب الله لدعاء قرائك الطيبين ونصرنى بفضل من عنده.. فشكرا لك ولهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

يأخذ علىَّ البعض أحيانا أننى أدعو دائما إلى ألا يهدر الإنسان طاقته النفسية فى محاولة الانتقام ممن أساءوا إليه، وأن يجتهد فقط فى الدفاع عن نفسه ورد الأذى عنها، محاذرًا أن يبلغ فى ذلك حد الانتقام ممن أساء إليه، ويرون فى ذلك نوعا من السلبية فى المعاملات الإنسانية، قد لا يصلح لمواجهة أعاصير الحياة فى هذا الزمان.

غير أننى أؤمن على الجانب الآخر بأن خير وسيلة للانتقام ممن أساءوا إلينا هى ألا نصبح مثلهم، أشخاصا قادرين على إيذاء الغير دون أن يؤرق ذلك ضمائرنا أو يحرمنا من النوم المطمئن..

وتعجبنى كلمة المفكر الفرنسى جان جاك روسو، التى يقول فيها: «حين أرى الظلم فى هذا العالم أسلى نفسى بالتفكير فى أن هناك جهنم تنتظر هؤلاء الظالمين».

وأؤمن كذلك بما قاله أحد الحكماء ذات يوم: «لا تنتقم من خصمك، ولكن أجلس على حافة النهر وانتظر ولسوف ترى جثته طافية فوق الماء بعد قليل، دون أن تلوث يدك بدمه».

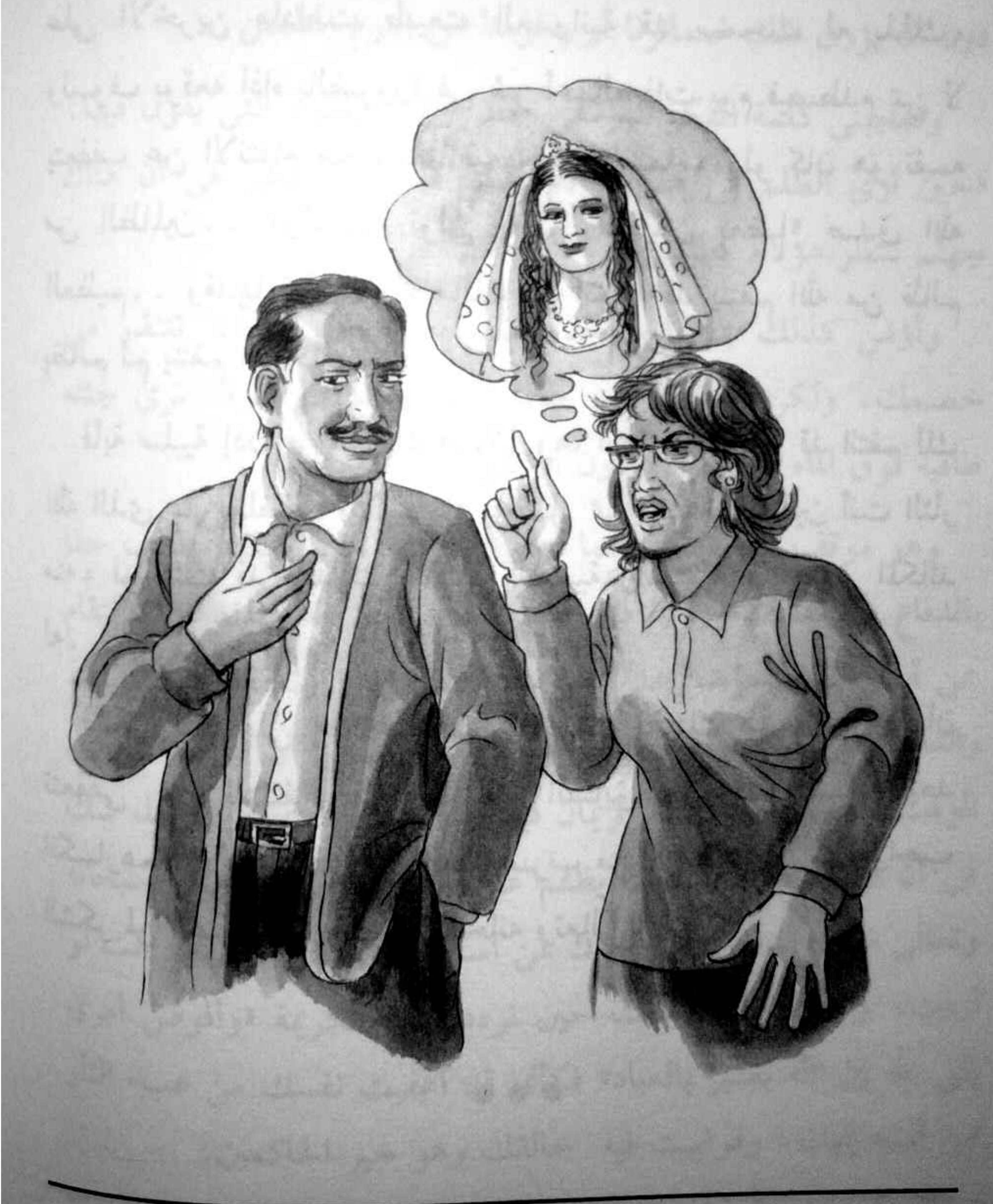
وهو موقف ليس سلبيا كما يبدو فى ظاهره.. لأنك مطالب حقا بالدفاع عن نفسك ورد الأذى عنها، ثم الترفع بعد ذلك عن الانتقام ممن أساء إليك حرصا على سلامك النفسى.. وتعففا عن الدنايا، والفحش فى الخصومة وهو موقف إيمانى وعملى أو «برجماتى» فى الوقت نفسه، فأما جانب الإيمان فيه فهو يقينك الذى لا يداخله شك فى أن فى السماء عادلاً لا يظلم عنده أحد، ومنتقما جبارا سبحانه وتعالى سوف ينتقم لك ولغيرك ممن أساء لك بأفضل مما تفعل أنت لو أردت، وثقتك كذلك بأنك حين تردد الآية الكريمة «وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد» فكأنما قد أعفيت نفسك من عبء الثأر ممن أساء إليك، وفوضت فيه خالقك وهو خير الحاكمين.

وأما الجانب العملى البرجماتى من هذا الموقف، فهو إدراكك أن من ظلمك وافترى عليك، لابد وأنه سوف يكرر إساءته وعدوانه على الآخرين مادامت طبيعته العدوانية قد سمحت له بذلك، ولسوف يوقعه أذاه بالضرورة فى شر أعماله ذات يوم فيصطدم بمن لا يتعفف عن الانتقام منه وينفذ فيه حكم السماء، ولو كان هو نفسه من الظالمين.. «وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا» صدق الله العظيم.. وقديما قال الإمام مالك بن أنس «قد ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما».

فأية سلبية إذن فى هذا الموقف؟! وها أنت يا سيدتى قد انتقم لك الله الذى يملى للظالم ولا يهمله بأفضل مما كنت تستطيعين أنت الثأر منه، لو كنت قد أهدرت طاقتك النفسية والمعنوية فى تدبير المكائد له..

فشكرا لك على إطلاعنا على تطورات قصتك هذه، وأرجو أن تتعففى عن التشفى فى رئيسك السابق وزوجته السرية بعد انكسارهما؛ لأن التشفى فى الغير ضرب من التقصير فى أداء واجب الشكر لمن أنصفك فى النهاية سبحانه وتعالى...

***



الداء العضال!

منذ فترة طويلة وأنا أحاول الاتصال بك دون جدوى. . فأنا أريد أن أتحدث معك حديثا طويلاً عن مشاكلى. . والحق هو أننى «مجموعة من المشاكل» تمشى على الأرض حتى ليخيل إلىّ أنك فيما تنشره فى بريد الجمعة تنشر كل حين وجها من وجوه مشاكلى، ولكن فى حياة إنسانة أخرى!.

ولأبدأ من البداية فأقول لك إننى سيدة فى منتصف العمر أعمل بوظيفة حكومية محترمة. . وقد تزوجت زواجا سعيدا للغاية وأنجبت من زوجى ثلاثة أبناء ذكور، وكانت الحياة تمضى بنا هادئة ووئيدة إلى أن أصيب زوجى الحبيب بداء عضال ستعرف تفاصيله بعد حين!.

فبعد فترة قصيرة من ملاحظتى بعض التغير عليه. . واجهته بما أشعر به من انشغاله عنى، وفوجئت به يعترف لى بأنه قد تزوج غيرى منذ فترة!.

وذهلت لهذا الاعتراف المفاجئ، وظننته يمزح معى فى البداية أو يغيظنى، لكنه أكده لى فى هدوء. . ولم يكتف بذلك وإنما اعترف

أيضا بأن هذه الزيجة السرية ليست الأولى فى حياته وإنما هناك زيجتان أخريان سبقتاها ودامت كل منهما عاما أو بعض عام! والزيجات الثلاث بسيدات مطلقات ويكبرنه فى السن ولديهن بنات فى سن الشباب!.

وأما تبريره العجيب لذلك فهو أنه لم يرزق بنات، ويجب أن تكون له ابنة تبهجه بقولها له يا «بابا»، أما توخيه أن تكون الزوجات فى مثل سنه أو أكبر منه سنا فلكى يضمن كما يقول ألا ينجبن منه ويزدن من أعبائه ومشاكله.

حدث ذلك بعد ١٥ عاما من الزواج السعيد باعترافه هو.. وصدمت صدمة العمر وتكدرت حياتنا، وبدأت من ذلك الحين المشاكل والمصادمات، ومن حين لآخر أعرف منه أنه قد طلق الزوجة التى ارتبط بها.. وترجع حياتنا للانتظام لفترة قصيرة ثم تظهر علامات التغيير من جديد وتبدأ المشاكل والصراعات، ويتكشف الأمر عن زيجة أخرى من مطلقة أو أرملة تكبره فى السن ولديها بنات.. وتتكرر الحجة السخيفة عن اشتياقه لسماع كلمة بابا من ابنة حنون لأنه محروم من البنات! وتتحول حياتنا إلى حجيم.. وتشتعل الخلافات بينى وبينه، وقد يهجر البيت لفترة تطول أو تقصر.. ثم يرجع بالخبر السعيد، وهو أن الزواج قد انتهى بالطلاق والحمد لله وما فات مات، وسوف نبدأ بداية جديدة.. فأصدق فى كل مرة

وأتقبل عودته للبيت وأحاول بكل ما أملك من قدرة على الصبر والنسيان تجاوز ما حدث ومواصلة الرحلة معه.. فلا تمضى فترة أخرى حتى تتكرر القصة بتفاصيلها وفصولها الممجوجة.. وهكذا حتى بلغ عدد زوجات زوجى خلال عشر سنوات ١٢ زوجة، منهن من تزوجها عرفيا، ومنهن من تزوجها رسميا، ومنهن من كانت عصمتها بيدها، ومنهن من كانت عصمتها بيده هو!.

وبالرغم من عدم تقصيرى معه فى شىء.. ومع أنه كان قبل أن يصاب بهذا الداء نعم الزوج لى ومثالا للرجل العظيم فى بيته، وكان أهلى يحبونه ويحترمونه جدا.. وكنت أدافع عنه دائما ولا أحتمل أن يذكره أحد أمامى بسوء حتى لقد كنت «ألتهم» من يسئ إليه بالقول أو الإشارة من الأهل أو الأقارب، وكنت أقدسه حتى كان بعض أهلى يتندرون على ذلك ويشيرون إليه بقولهم سيدنا فلان رضى الله عنه.. من شدة توقيرى له ولا أدرى ماذا جرى له.. وكيف تنازل عن وقاره وهو الموظف الكبير، وعن حرصه على زوجته وأبنائه إلى هذا الحد...

لقد أعطيته أكثر من فرصة للبدء من جديد.. وفى المرة الأخيرة لامنى أبنائى الثلاثة على قبولى له بعد كل ما حدث.. وتحملت لومهم وقبلت بعودته إلينا وإقامته معنا.. فلم يلبث أن غدر بنا بعد قليل وتزوج من أخرى، حتى قال لى ابنى الأكبر «تستاهلى» لأننى قد قبلت بعودته ولم أتعلم شيئا!.

والآن يا سيدى فإننا نعيش وحدنا وقد امتنع زوجى عن الإنفاق علينا لأنه مشغول بالطبع بآخر زيجاته.. أو ربما بتبعات بعض زيجاته المتكررة، فاضطررت إلى إقامة دعوى نفقة عليه مازالت منظورة أمام المحكمة منذ ١٨ شهرا.. وقد كاد لى زوجى فى عملى وسرق من مكتبى ورقة رسمية ليثبت إهمالى، وتمت مجازاتى بسبب ذلك. فماذا أفعل يا سيدى، وكيف أحصل على حقى من هذا الزوج الجاحد، وهل تصدق حجته العجيبة فى تكرار الزواج بدعوى أنه لم يرزق بنات ويريد أن تكون له «ابنة»!.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

من طبائع البشر أن يميلوا دائما لتبرير تصرفاتهم التى يعلمون جيدا أنها تتعارض مع الأعراف السائدة، أو تتصادم مع قيم الوفاء والأمانة والالتزام، بدوافع يحاولون بها إضفاء طابع «النبل» أو «الإنسانية» أو «الضرورة» التى لم يكن منها مفر على هذه التصرفات، وهى حيلة نفسية دفاعية معروفة لدى علماء النفس، فمن تنحرف عن الطريق القويم تحاول إقناع نفسها والآخرين بأنها لم تنزلق إلى الانحراف باختيارها الحر، وإنما لدوافع قهرية لم تدع لها سبيلا آخر للاختيار، أو بأنها كانت ضحية لحسن نيتها وسذاجتها وثقتها العمياء فى أمانة الآخرين، ومن يغدر بمن يحبه يحاول أن يتلمس لنفسه الأعذار لهذا الغدر فى تصرفات الطرف الآخر، وقد يصل به خداع النفس إلى ما

يشبه «الاقتناع» بأنه هو الذى دفعه دفعا إلى هذا الغدر به بتقصيره معه أو بسوء إدراكه للأمور . . . إلخ .

والأسوياء الأمناء فقط هم الذين لا يحاولون إلقاء تبعة تصرفاتهم غير المبررة على الآخرين، ولا يستسلمون نفسيا لنزعة «لوم الضحية» بدلا من لوم الجانى التى تسود بعض المعاملات الإنسانية أحيانا . .

غير أن واجب الأمانة يقتضى منى أن اعترف لزوجك هنا بفضل «الابتكار» والتجديد فى اختيار الدافع النفسى المزعوم، الذى يبرر به غدره المتكرر بك وزيجاته السرية المتوالية! فالحق أنه مبتكر وجديد ومن الإنصاف أن يصك باسمه فى موسوعة علم النفس، ذلك أن هناك أكثر من وسيلة مشروعة لإشباع الاحتياج النفسى؛ لأن يمارس الإنسان إذا كان فى حاجة إلى ذلك حقا، إحساس الأبوة تجاه ابنة ليست من صلبه، بغير حاجة للزواج بمطلقة ذات بنات، وأبسط هذه الوسائل هى أن يحنو على بنات إخوته أو شقيقاته ويقربهن منه ويهتم بأمرهن، أو يصطفى منهن من يخصها برعايته واهتمامه، فيشبع هذا الاحتياج لديه بغير حاجة لأن يتعس زوجته بالزواج عليها ١٢ مرة متتالية! .

وأوضح دليل على أن زوجك كان ينشد الزواج لأسباب لا علاقة لها بهذا الاحتياج النفسى، هو أن زيجة واحدة له لم تدم أكثر من عام أو بعض عام، فأين إذن الارتباط النفسى المزعوم بينه وبين بنات

أولى الزوجات، ولماذا لم يستمر أو يدم، ولماذا انقطع هذا الارتباط بعد بضعة شهور قليلة مع بنات الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة... إلخ.

أغلب الظن أنه قد بدأ «سياحته» فى عالم الزواج السرى مخادعا نفسه بهذا المبرر، فلم يكن وحده كافيا من وجهة نظر الزوجة السرية لإنجاح أى زيجة أو استمرارها، ومعها كل الحق فى ذلك إذ ماذا يدعوها للتمسك بزوج لا يقوم بالإنفاق عليها.. ولا يتحمل مسئوليات الزواج الاجتماعية والمادية والنفسية، وكل ذلك بدعوى أنه يريد أن يشجى أذنيه بسماع كلمة «بابا» من ابنتها؟ لهذا ينهار الزواج سريعا كما بدأ متعجلا.

ولا عجب فى ذلك لأن ما بنى على أساس واهن لا يصمد للرياح طويلا، فإن كان ثمة سؤال يفرض نفسه فى هذه القصة العجيبة فهو: أين يجد كل هؤلاء المطلقات والأرامل ممن يماثلنه فى السن أو يكبرنه قليلا، ولديهن بنات فى سن الشباب ويقبلن بالزواج المتعجل من زوج وأب لثلاثة من الأبناء الذكور دون روية أو تعقل؟!

يا سيدتى إن الثمرة إذا انتشر فيها العفن لا تجدى معها أية محاولات لعلاجها وتخليصها مما أصابها من الفساد..، وخير ما نفعل معها هو أن نلقى بها جانبا ونحذر الغير من تناولها لكيلا تصيبهم بأذى، وأحسب أن هذا هو الموقف الآن بينك وبين زوجك، فلماذا لا تتوصلان معا إلى حل ودي كريم لزواجكما المعلق بغير

الدخول فى منازعات قضائية.. ولماذا لا يكرمك هو بالانفصال الهادئ مع تحمله لمسئوليته المادية عن أبنائـه، وأداء حقوقـك إليـك بلا مراوغة ولا نزاع.. أو يعترف لنفسه بالحقيقة ويقبل بالعلاج النفسى لفترة قصيرة لإنقاذه من داء الزواج السرى المتكرر وخداع النفس بزعم الحاجة إلى ممارسة إحساس الأبوة لابنة لم ينجبها، فيبرأ من الداء.. ويكتفى بسماع كلمة «بابا» من أبنائه الثلاثة بدلا من استجدائها من بنات الغير؟!.

***



لقاء الغرباء!

أنا سيدة نشأت فى أسرة بسيطة مكونة من سبعة أفراد. . وكان أبى - يرحمه الله - رجلا فاضلا فأنشانى على الاستقامة والتدين، وألحقنى فى طفولتى بمدرسة دينية، أنهيت سنواتها والتحقت بعدها بمعهد أزهرى.

وكنا نقيم بمنزل يقوم صاحبه بتأجير إحدى شققه للعزاب من العرب والمصريين. . فكأن أبى على خلاف دائم مع صاحب البيت بسبب تأجير هذه الشقة للعزاب، وما ينتج عن ذلك من بعض التصرفات غير الأخلاقية. ولولا الظروف المادية وتعذر الحصول على مسكن بديل بتكلفة محتملة، لانتقل أبى بأسرته من هذا البيت إلى مكان آخر. .

وذات يوم خلت تلك الشقة من سكانها. . وشهدنا شابًّـا أفريقيًّـا يقيم بها فازدادت مخاوف أبى من المشاكل المتوقعة بسبب هذا الشاب الأجنبى، غير أن الأيام مضت بغير أن يلحظ أبى عليه أى تصرف مخجل كتصرفات سابقيه فى السكن بهذا الشقة، وعلى

العكس من ذلك، فلقد رآه حريصا على أداء الفروض فى أوقاتها بالمسجد وحريصا أيضا على صلاة الفجر، كما أنه يغض بصره خلال سيره فى الطريق فلا يتطلع إلى البنات والنساء ولا يقتحمهن بنظرات فاجرة كما كان يفعل غيره، وشيئا فشيئا بدأ أبى يطمئن إلى أخلاقيات هذا الشاب الأسمر.. وراح يشيد به وبالتزامه الدينى والخلقى إلى أن كان عائدًا ذات يوم إلى البيت فوجد هذا الشاب واقفا أمام السلم وهو فى حالة سيئة ولا يقوى على الصعود إلى شقته.. فأعانه أبى على صعود السلم، وأدخله شقته وطمأنه إلى أنه سوف يستدعى له طبيبا لعلاجه.. وتركه فى مسكنه ورجع بعد قليل مع أحد الأطباء الذى قام بإسعافه وكتب له العلاج.

ورعاه أبى خلال فترة مرضه وأصبح صديقا له، وعرف عنه أنه يدرس بإحدى كليات الأزهر، وجاء من بلده الأفريقى ليتفقه فى الدين ويصبح عالما فيه كأبيه الشيخ الكبير، وراح أبى يتحدث عن أدب هذا الشاب وتدينه وكرم أخلاقه فلفت نظرى إليه كفتاة، وبدأت أنشغل بالتفكير فيه، وحاولت بالفعل جذب انتباهه إلىّ، ولكن دون جدوى، فقد كان الفتى متحفظا ولا يكاد يرفع عينيه فى وجهى إذا التقيت به..

وبعد فترة ليست قصيرة فوجئت بأبى يبلغنى بأن هذا الشاب يريد أن يرتبط بى.. ولم تسعنى الفرحة حين عرفت ذلك من أبى.. ولم

أحاول إخفاء سعادتى بالخبر.. وشجعنى على ذلك أننى وجدت أبى كذلك سعيدا بهذا الرغبة ومتحمسا للاستجابة لها، وعرض أبى الأمر على الأسرة فاعترض عمى بحجة أنه أجنبى، وسوف يعرضنى زواجى منه إلى مشاكل عديدة فى المستقبل، غير أن أبى طمأنه إلى حسن أخلاق هذا الشاب وصدقه وتدينه.. وإلى أنه ينوى الاستقرار فى مصر نهائيا، ومواصلة دراساته العليا ليصبح عالما من علماء الأزهر.

وتزوجت هذا الشاب الأفريقى وعشت معه أسعد أيام عمرى، ورزقت منه بولدين وعاملنى زوجى بلطف شديد واحترام كبير، واشترى شقة تمليك كتبها باسمى.. وعشنا حياة كريمة بما كان يرسله له أبوه الشيخ الكبير من بلده، لينفق على حياته بمصر.

لكن السعادة لم تطل كثيرا للأسف، فلقد مرض زوجى الحبيب بمرض خطير بعد عدة سنوات، وأنفق الكثير على علاجه ولم تتحسن حالته للأسف، وإنما ازدادت تدهورا.. وأبلغنى ذات يوم أنه قرر السفر إلى بلده؛ لكى يأتي بمبلغ كبير من المال من أبيه ليواصل علاجه.. وجاء موعد السفر، فاحتضن ولديه وانخرط فى بكاء مرير وراح يوصينى بهما بشدة، فانخرطت أنا أيضا فى البكاء واحتضنته وطمانته على نفسه وولديه، ودعوت له بالعودة سالما من بلده لكى يربى ولديه.. وينشأ فى رعايته.. وسافر مودعا منى بأحر الدعاء

والأمنيات الطيبة.. فلم يمض على سفره سوى ايام وتلقيت من أبيه اتصالا يبلغنى فيه وفاة زوجى، ويعزينى فيه ويعرض علىَّ الحضور إلى بلده مع أولادى للعيش فيه فى كفالته ورعايته.. وصدمت صدمة هائلة.. وبكيت حتى جفت دموعى..

وعرفت أن زوجى لم يسافر فى الحقيقة لكى يحضر مالا من أبيه للعلاج، وإنما لكى يراه ويرى أمه قبل الرحيل، وبعد أن حدثه الأطباء عن خطورة حالته، ومن بين دموعى اعتذرت لوالد زوجى عن عدم استطاعتى العيش خارج بلدى، وتقبل الشيخ الطيب الموقف.. وتعهد بأن يرسل نفقات الأبناء كل شهر.. ووفى بوعده وكان كريما معنا إلى أن توفاه الله بعد ابنه بعدة سنوات، فانقطع موردى.. وتولى أبى الإنفاق على أسرتى الصغيرة إلى أن حانت ساعة رحيله هو الآخر عن الدنيا، وشعرت بحزن الدنيا كلها عليه، وقد كان سندى الوحيد فى الحياة بعد الله سبحانه وتعالى..

ولم أجد من بعده من يساعدنى فى تربية أبنائى، فاضطررت للخروج للعمل لأول مرة فى حياتى.. وواجهت مشاكل عديدة وإغراءات أكثر، لكنى صمدت لها بقوة إيمانى وبذكرى الأيام السعيدة التى عشتها مع زوجى الطيب، ومضت الأيام بخيرها وشرها، وواصل الولدان دراستهما بصعوبة شديدة بسبب اعتبارهما أجنبيين، وما ترتب على ذلك من دفع رسوم باهظة إلى أن تخرج الابن

الأكبر، وحاول أن يجد لنفسه أى فرصة عمل لكى يخفف عنى بعض العبء.. فاصطدم بمشاكل كثيرة بسبب جنسيته، ولم يستطع العمل فى أية جهة حكومية لأنه فى نظر القانون أجنبى تبعًا لأبيه.

واشتد علىَّ المرض.. فلم يطق ابنى الأكبر أن يجلس عاطلا بلا عمل وأنا أعانى المرض وأكافح لإعالته، فقرر السفر إلى بلد أبيه ليعمل هناك ويساعدنى بما يستطيع إرساله إلىَّ من نفقات، وسافر بالفعل وتمزق قلبى وأنا أراه يواجه المجهول لكى يساعد نفسه، وراح يكتب لى بأخباره كل شهر، ثم اضطربت الأحوال السياسية فى هذا البلد ونشبت فيها حرب أهلية أتت على الأخضر واليابس، فانقطعت عنى أخباره لفترة طويلة انخلع خلالها قلبى عليه..

ومازلت أنا وابنى الآخر نواصل حياتنا فى مصر، ونفتقد ابنى الأكبر الذى اضطره قانون الجنسية للافتراق عنا.

وسؤالى لك الآن يا سيدى هو ماذا يضير هذا القانون فى أن يحصل أبناء الأم المصرية على جنسيتها؛ خاصة بعد وفاة أبيهم الأجنبى؛ لكى تتيسر لهم سبل العمل والحياة فى بلدهم الذى لم يعرفوا غيره؟ أليس ذلك من حق هذه الأم.. ومن حق أبنائها.. أم ترى أنه سيظل محكوما على من هن فى ظروفى نفسها أن يعانين هذه المعاناة المرة بسبب زواجهن ذات يوم بعيد من غير أبناء بلدهن.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

فى التراث الشعبى العربى كلمة تقول: لا تقع فى حب الغرباء فإنهم دوما على رحيل. وتحذر هذه الحكمة من استسهال الارتباط العاطفى، ومن ثم الزواج من الغرباء الذين لا تضرب جذورهم فى الأرض التى نقف عليها.. وقد لا تستقر سفنهم فى موانينا طويلا حتى نفاجأ ذات يوم بهم وقد استجابوا لنداء الرحيل.. ورفعوا مراسيهم من الماء، وأبحروا بسفنهم بعيدا عنا مخلفين وراءهم اللوعة.. والندم والتبعات الجسام.

وفى المأثور الشعبى فى الغرب حكمة شبيهة تقال فى الظروف المماثلة هى: متعه الحب لحظة.. شجن الحب يدوم إلى الأبد، وتهدف هذه الحكمة إلى التذكير بما قد يترتب على متعة الحب العابرة من نتائج وتبعات، لاتزول بعد انقضاء الحب أو انطواء صفحته، وإنما تدوم إلى الابد.. وتصاحبنا فى الحياة بقية العمر كالأبناء الحيارى الذين يجيئون إلى الدنيا ثمرة لزواج بين أبوين مختلفين دارا وتراثا وأعرافًا وتقاليد.. وربما أيضا فى العقيدة الدينية فيدفعون ضريبة هذا الاختلاف فيما بعد، ويواجهون متاعب جمة فى الحياة، دون سند من قوانين بلادهم الأم التى لم يعرفوا غيرها بالرغم مما يحملون من جنسيات مختلفة.

والخلاصة هى أن من يتخذون مثل هذا القرار المصيرى بالزواج

من الغرباء لابد لهم أن يعوا جيدا تبعات هذا الارتباط، وهم يستجيبون لنداء العاطفة.

فمن يدرك عواقب الأمور قبل الإقدام عليها يكون أقدر على مواجهتها حين تظهر فى أرض الواقع.. ممن أعمته العاطفة الهوجاء عن كل شيء، فلم يتحسب للنتائج ولم ينشغل بغير تحقيق رغائبه الوقتية.. «والمعرفة التامة النافية للجهالة».. على حد التعبير القانونى الشائع.. تفقد الإنسان حجية الشكوى من ثقل التبعات أو الزعم بعدم إدراكه لها من البداية. ولقد تؤدى إلى التأثير على قراره وترجيح الحذر على التسرع.. والتروى أو النكوص على الاندفاع العاطفى والتهور.

والمشكلة التى تثيرها رسالتك مشكلة حقيقية وجادة، ويعانى منها عدد كبير بالفعل من الأبناء الحيارى من ثمار هذا الزواج المختلط، ومن واجب الإنصاف أن نقول إنهم لا ذنب لهم فى اختيارات آبائهم وأمهاتهم لشركاء الحياة، ولا فى اختلاف قوانين الجنسية بين البلاد فيحرمون هم من حق المواطنة الكاملة فى بلادهم، التى لم يعرفوا غيرها، فى حين يحصل نظراؤهم فى معظم دول العالم المتقدم على حقوق الجنسية تبعًا لأمهاتهم، ويواجهون الحياة بقدرات وإمكانات أفضل، ولقد أريقت فى هذه المشكلة أنهار من أحبار الصحف.. وسمعنا عن قانون تم إعداده لمنح أبناء الأمهات المصريات جنسية

بلادهن، ولكنه لم يصدر بعد، ونأمل فى أن يرى النور فى الدورة المقبلة لمجلس الشعب.

أما زوجك الراحل الذى أحسن عشرتك وعاملك بود واحترام كبيرين، فلم تطل للأسف رحلته فى الحياة كثيرًا فلقد ذكرنى قراره بالعودة إلى بلده ليستقر فى أرضه بعيدا عنكم استعدادا للنهاية الوشيكة، بتقليد من تقاليد بعض قبائل الهنود الحمر، حين كان من يستشعر منهم قرب النهاية ينأى بنفسه عن الأهل والأحباء.. ويصعد على قمة جبل بعيد فيرقد على الارض ليستقبل النهاية المحتومة مستسلمًا لأقداره.. وعازفا عن أن يكبد أعزاءه أحزان الرحيل، فليرحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم إليك، وما التزم به خلال رحلة حياته القصيرة من قيم ومثاليات..، ولنأمل خيرا فى صدور القانون الجديد، لكى يقدم الحل العادل لمشكلة أبنائك وأبناء من هن فى مثل ظروفك.

* * *

الوجه الحزين!

أبدأ رسالتى إليك بتحية الصديق لصديقه، ذلك أننى أعتبر نفسى صديقا لك بالرغم من أنى لم ألتق بك من قبل، ولم تتعد علاقتى بك متابعتى لبابك الجميل منذ سنوات عديدة، فكم شعرت فى مواقف سابقة بالرغبة فى الكتابة إليك، وكم عدلت عن ذلك فى اللحظة الأخيرة.. إلى أن جاءت اللحظة المناسبة، ورأيت أن أكتب لك بتجربتى عسى أن يستفيد بها قراؤك خاصة من الشباب..

ولابدأ فأقول لك إننى شاب فى الأربعين من عمرى، كنت أعيش فى كنف أبى، وأمثل بالنسبة له خيبة الأمل الكبرى فى حياته ـ رحمه الله ـ فلقد كنت أكبر أخوتى وهم ثلاث شقيقات وأخ واحد، وكان أبى موظفا كبيرا بإحدى الهيئات العامة ورجلا طيبا وتقيا ويضع كل آماله فى وفى إخوتى، ويركز جهده الأكبر علىّ بالذات لإيمانه بأن الابن الأكبر إذا حسنت تربيته واستقام أمره، فإن إخوته الأصغر منه سوف يقتدون به ويمضون على طريقه.. ولهذا اشتد علىّ أبى بعض الشىء لكى أتفوق دراسيا وأصبح مثلاً أعلى لإخوتى، كما اشتد

على فى تقويمى ومراقبتى ليضمن حسن سلوكى، فاستجبت لما طلبه منى فى بعض الأحيان. . وسخطت عليه فى أحيان أخرى، إلى أن بلغت مرحلة الثانوية العامة، وبذل معى أبى كل ما يملك من جهد لكى أتفوق وأحصل على مجموع، يؤهلنى للالتحاق بإحدى كليات القمة.

لكنى خيبت أمله للأسف، وتمردت على القيود التى فرضها علىّ. واختلست نقود الدروس الخصوصية، التى ائتمننى عليها لتسليمها للمدرس. . وأنفقتها فى شراء السجائر والملابس واللهو مع الأصدقاء، وانفضح أمرى حين شكا له المدرس ذات يوم من انقطاعى عن الدرس، وواجهنى أبى بما عرفه. . ولم يقل لى سوى إنه حزين لأن يكون هذا هو سلوكى، وأنا الأخ الأكبر لأخوتى الذى سيرعاهم من بعده. . فكيف يطمئن قلبه إلى مصيرهم و«الراعى» المنتظر فاسد على هذا النحو؟!.

وشعرت بالخجل من نفسى بعض الوقت. . لكنى لم أعدل عن سلوكى بالرغم من ذلك، وأهدرت الوقت الثمين فى العبث واللهو وتدخين السجائر ومطاردة الفتيات.

وكانت النتيجة أن نجحت بمجموع ضعيف، لم يؤهلنى إلا للالتحاق منتسبًا بكلية نظرية. . واستسلم أبى للحزن وقتا طويلا واعتزلنى لفترة لم يوجه إلىَّ خلالها حديثا ولا كلاما، وراح يردد أمامى كلما رآنى: «حسبى الله ونعم الوكيل»، وبدلا من أن أشعر

بعمق أحزانه وخيبة أمله فى . . أعتبرت ذلك تعريضا بى . . وازددت سخطا وتمردًا واستهتارا، ورسبت فى السنة الأولى بكليتى النظرية بالرغم من تفرغى الكامل للدراسة، ولم يعد يؤثر فى وجه أبى الحزين ولا دموعه وهو يصلى ويحتسب واستسلمت تماما لنداء السخط. وأصبحت عبئا على أمى وأبى فى مصاريفى، فأنا فى حاجة دائمة للنقود لشراء السجائر والسهر مع الأصدقاء ومطاردة الفتيات وتناول المحرمات وشراء الملابس التى لا تحتملها ميزانية أبى، فإذا لم أجد مع أمى ما أريد ثرت وهددت. . فتقترض لى وتعطينى، وإن فشلت طلبت من إخوتى قروشهم القليلة بدعوى اقتراضها منهم. . ثم لا أسددها بالطبع. . وعلى ذلك فقد استمروا فى الاستجابة لى، وحرموا أنفسهم من معظم مصروفهم من أجلى؛ طلبا للسلام معى وخوفا من الفضائح.

وفى عامى الجامعى الثانى، سعى أبى فى إيجاد عمل لى بالثانوية العامة وألحقنى بوظيفة مؤقتة فى أحد فروع الهيئة التى يعمل بها. . قائلا لأمى إن كثيرين من الطلبة المنتسبين يعملون، دون أن يؤثر ذلك على تفوقهم. . ورحبت بالعمل لكى أجد موردا إضافيا لى. . لكن سلوكى فى العمل لم يكن أفضل منه فى الدراسة. . فلقد واصلت الاستهتار والغياب وافتعال الأعذار المرضية، والتأخر عن موعد العمل فى الصباح بتأثير السهر إلى الفجر، حتى هددنى رئيسى المباشر بالفصل أكثر من مرة وتعجب لبعد الشقة بينى وبين أبى الرجل

الطيب الملتزم الكفء فى عمله، فكنت أواظب بعض الفترات وأرجع للتمارض والادعاء فى فترات أخرى، ولولا تقدير رئيسى لظروف أبى أو «لمصيبته» فىَّ على حد تعبيره لما أبقانى فى العمل يوما واحدا.

وعلى هذا الحال مضت بى الأيام، ونجحت فى الصف الأول الجامعى من السنة الثانية، ورسبت فى الصف الثانى مرة أخرى ونجحت فى العام التالى، فى حين واصل إخوتى دراستهم بنجاح..

وفى الصف الثالث الجامعى رجع أبى من عمله مرهقا وحزينا كعادته فى الفترة السابقة، فصلى العصر.. ثم صعدت روحه إلى السماء رحمه الله، وهو جالس على السجادة يسبح ربه ويشكو إليه همه بأكبر أبنائه، وتزلزلت حياة الأسرة زلزالا عنيفا.. وتزلزل كيانى كله، وشعرت بأن سكينا حادة قد مزقت أحشائى.. ووقفت فى السرادق أتلقى العزاء فى أبى، وأنا غائب الذهن عن الجميع وصورة وجهه الحزين تلاحقنى.. وتقتلنى بالندم والأسف والحزن.. ووسط زحام المعزين كنت أسأل نفسى، وأنا أكاد انفطر من الأسى: لماذا لم أسعد أيامه فى السنوات الأخيرة؟ وماذا جناه لكى يلقى منى السخط والتمرد، وهو الرجل الطيب المكافح الذى كان يحرم نفسه ليعطى أبناءه؟ ولماذا لم أعتذر له وأقبل يده وقدمه وأرجو صفحه وعفوه.. ولماذا.. ولماذا.. ولماذا.. حتى كاد رأسى ينفجر..

وأنتهت أيام العزاء وخلا البيت علىَّ وعلى أمى وأخوتى..

وسألتنى أمى ماذا سنفعل فى «حملنا» الثقيل ولم يعد لنا سوى معاش أبيك، وقد انقطع رزقه من العمل الخارجى بعد الظهر؟.

فأنفجرت فى البكاء طويلا وحين تمالكت نفسى، قلت لها إننى قد «أحزنته» كثيرا يرحمه الله. وإن فى عنقى دينًا له واجب السداد.. ولسوف أسدده برعايتك ورعاية إخوتى ولسوف أعمل ليل نهار لتوفير متطلباتكم بعد أن انقضى عهد الاستهتار، وكل ما أرجوه هو أن يسامحنى ويصفح عنى، وأن تسامحونى جميعا وتصفحوا عنى.

وبكت أمى وكل أخوتى.. وتعاهدنا جميعا على أن نضع أيدينا فى أيدى بعضنا البعض؛ لاستكمال رسالة أبى وإسعاده وهو فى العالم الآخر.. وبالرغم من تشكك أمى الصامت فى إمكان التزامى بما وعدت، فلقد أدركت تماما أننى لن أخذلها ولن أخذل أخوتى الصغار بعد الآن، وبدأت مرحلة جديدة من حياتى بمقاطعة شلة العبث والاستهتار والجرى وراء الفتيات والسهر حتى الفجر، وامتنعت نهائيا عن تناول المحرمات وشراء علب السجائر المستوردة.. وإذا كنت قد عجزت عن التوقف دفعة واحدة عن التدخين.. فلقد خفضت استهلاكى منها إلى الثلث. ومع ذلك كان يراودنى الإحساس بالندم وأنا أدخنها وأشعر بأن أخوتى أحق بثمنها منى، والتزمت فى عملى بمواعيد الحضور والانصراف، وأصبحت أكثر جدية وإنتاجًا فيه، فبدأ رئيسى المباشر يعطينى الحوافز لأول مرة منذ عملى معه.. بل وأصبح

يفتعل الأسباب لكى يعطينى ساعات عمل إضافية أتلقى عنها أجرا مناسبا.

وأهم من كل ذلك أننى أصبحت أحرص على العودة إلى البيت فى الظهر كل يوم، وهو ما لم أكن أفعله من قبل. ولا يهدأ لى جانب إلا إذا أطمأننت على عودة كل إخوتى من مدارسهم.. ليتناولوا معى ومع أمى طعام الغداء.. ويبدأوا مذاكرتهم فى أمان..

وقد اهتزت مشاعرى ذات يوم، حين جاءت إلىَّ أختى التى تلينى فى السن وكانت وقتها طالبة بالسنة الثانية الثانوية؛ لتستأذننى فى الخروج لمدة ساعة للذهاب إلى بيت إحدى صديقاتها لإحضار شىء من عندها، وعلمت منها أنها استأذنت أمها فطلبت منها أن تأخذ إذنها منى ابتداء من الآن؛ لأنى قد أصبحت رجل البيت، المسئول عن الأسرة.. فخفق قلبى.. وكاد الدمع يطفر من عينى، وقبلت أختى فى جبينها وقلت لها: اذهبى مصحوبة بالسلامة.

ورنت عبارة «رجل البيت» رنينا قويا فى سمعى حتى شعرت بالخوف والرهبة والمسئولية، واستدعيت صورة أبى فى مخيلتى.. وقلت له فى خيالى: هل سأنجح فى تحمل مسئوليتك بعدك يا أبى؟.

ولم تكتف أمى بذلك، وإنما وضعت بين يدى فى أول الشهر معاش أبى وطلبت منى الإنفاق على الأسرة، فجلست معها لتدبير شئون البيت وأضفت إلى المبلغ مرتبى البسيط، دون أن أخصم منه

إلا أجر المواصلات وثلاثة جنيهات فقط لى كمصروف شخصى.. واستدعيت إخوتى وأعطيت كلا منهم مصروفه وأعطيت أمى مصروف المطبخ.. وسددت إيجار الشقة.. وفاتورة الكهرباء. وشعرت بحجم العبء الكبير، الذى كان يتحمله أبى صامتا ودون شكوى طوال حياتنا.

وعلى هذا النحو مضت حياتنا فى العام الأول من رحيل أبى.. ومن عجب أننى وسط هذه المسئوليات والمشاغل قد وجدت الوقت الكافى لاستذكار دروسى، ونجحت فى امتحان الصف الثالث الجامعى فى أول مرة.. وسعدت كثيرا بنجاح كل إخوتى فى صفوفهم الدراسية.. كما أصبحت أقضى معظم وقتى فى البيت، ما لم يكن عندى عمل مسائى وأتابع دراسة أخوتى وأتحدث معهم.. وأحل مشاكلهم.. وألبى طلباتهم، وعرفت لأول مرة عبء دخول المدارس وطلبات الإخوة من الملابس والأحذية والحقائب والكراريس.. وعبء العلاج إذا مرض أحدهم.. وعبء الديون للبقال والجزار إلخ.

وأمضيت شهورا أروح إلى عملى وأجئ منه، وليس فى جيبى سوى قروش المواصلات.. وبعد فترة أصبحت ملابسى قديمة.. ومع ذلك فقد رفضت شراء الجديد منها؛ لكى استطيع المحافظة على مظهر إخوتى.. وأصبح حذائى باليًا دون أن أفكر فى شراء غيره ومع ذلك فأنا راض عن نفسى وأسير مرتاح الضمير، وهو إحساس

لم أكن أشعر به وأنا أضع فى جيب قميصى الفاخر علبة السجائر الأمريكية والولاعة وارتدى بنطلونا وقميصا غاليين، وأجلس مع أصدقاء زمان فى أحد الأماكن الراقية أو أذهب إلى موعد مع فتاة.

وتخرجت فى كليتى بتقدير جيد.. وقبل أن أطلب ذلك كان رئيسى المباشر قد قام بكتابة طلب لتعيينى بشهادتى فى الهيئة، ورفع مرتبى بعد أن أصبحت ذراعه اليمنى فى العمل وأحبّ موظفيه إليه.. وتم التعيين، ولم تكن فرحتى به أكبر من فرحتى بالتحاق أختى بالكلية التى رغبت فى الالتحاق بها، ولا من فرحتى بتقدم بقية الإخوة فى دراستهم بنجاح كبير.

والعجيب هو أننى وأنا من كنت أكره الدراسة وأضيق بإلحاح أبى علىّ للاستذكار والتفوق، قد وجدت نفسى أكرر مع إخوتى كلماته نفسها دون أن أدرى.. وتدمع عينى حين أتذكره، وهو يكاد يقبل يدى لكى أستذكر دروسى لمصلحتى الشخصية، وليس لمصلحة أحد غيرى.

ولقد هاجمتنى صورته وهو يستجدينى الاستذكار، وأنا أصلى العصر ذات يوم فقرأت الفاتحة على روحه، وإذا بى تلمع فى ذهنى فكرة جديدة هى.. ولماذا لا أحقق له أمله الخائب فى بعد رحيله عن الحياة؟ ونهضت من جلستى، وقد عقدت العزم على الالتحاق بالدراسات العليا فى كليتى، ونفذت ذلك بالفعل ونجحت فى السنة

التمهيدية بلا مشاكل. ثم شغلت بإعداد رسالة الماجستير فاستغرقت فى ذلك بضع سنوات؛ بسبب انشغالى بعملى وأسرتى والعمل الأضافى لتحقيق مزيد من الدخل.. ثم أيضا بخطبة أختى لأحد خريجى كليتها.. ومع ذلك فلقد انتهيت من الرسالة آخر الأمر وطبعتها وصدَّرت أولى صفحاتها بهذا الإهداء: «إلى الرجل الذى لولا فضله على حيا وميتًا لما نجحت فى إنهاء هذه الرسالة.. إلى أبى العظيم الأستاذ فلان الفلانى رحمه الله وأحسن جزاءه» وكان يوم مناقشة الرسالة يوما مشهودا فى حياتى وحياة أسرتى، وزغردت أمى لأول مرة، بعد رحيل أبى فى قاعة المحاضرات، وهى تسمع قرار لجنة المناقشة بمنحى درجة الماجستير بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف.

ولست أريد أن أطيل عليك أكثر من ذلك.. لكنى سأقول لك فقط أنى خلال ١٨ عاما من رحيل أبى عن الحياة، قد وفقنى الله العلى القدير فى رد بعض دينه لى، واستكمال رسالته فتخرج كل إخوتى وعملوا حتى الصغير، الذى كان عمره يوم وفاة أبى أربعة أعوام قد تخرج وتزوجت شقيقاتى الثلاث زيجات سعيدة، وأصبح لى ثلاثة إخوة جدد هم أزواجهن.. وقد أعاننى ربى على سترهن جميعا.. بجمعيات الادخار من مرتباتهن ومرتبى ودخلى الإضافى، ومن عائد عمل عامين فى الخارج، انتدبت خلالهما فى أحد مكاتب الهيئة الخارجية التى أعمل بها، ولولا المسئولية العائلية التى أتحملها

لما رشحنى رؤسائى لهذا الانتداب، كما عمل آخر العنقود أخى الاصغر الحبيب، الذى اشعر بأنه ابنى وليس أخى فى إحدى الدول العربية عن طريق أحد المعارف منذ حوالى العام، وفوجئت به يرسل إلىَّ بعد بضعة شهور من سفره مبلغا بالآلاف لكى أستعين به كما قال على إنهاء رسالتى للدكتوراه؛ لأننى قد حصلت على إجازة دراسية لإنهائها وقل دخلى، فاقتطعت لنفسى ربع المبلغ، الذى أرسله وأودعت الباقى باسمه فى البنك ونبهت عليه بحزم بألا يرسل نقودا أخرى؛ لأنه أحق بها ويحتاج إلى شقة وتكاليف للزواج حين يجئ الأوان.

ولقد أصبح بيتنا الآن يموج بأخواتى البنات وأطفالهن الرضع والصغار وأزواجهن يوم الجمعة كل أسبوع. . وتتصدر الجلسة أمى الحبيبة المكافحة، وأشعر أنا بأن هذا اليوم هو أسعد أيام الأسبوع.

وأما الدافع الذى دفعنى لكتابة هذه الرسالة إليك فهو خبران سعيدان والحمد لله. . الأول هو أن الله قد وفقنى إلى الارتباط بفتاة ممتازة، تصغرنى بعشر سنوات بعد أن ظلت أمى تلح علىَّ فى الزواج قبل أن يسرقنى العمر، فجاء النصيب مع هذه الفتاة الطيبة المتدينة وهى زميلة لى فى الهيئة نفسها، وتم عقد قرانى عليها. . وسيتم الزفاف فى نوفمبر المقبل بإذن الله. وأما الخبر الثانى فهو أنه قد تحددت جلسة لمناقشة رسالتى للدكتوراه فى أكتوبر المقبل وأستاذى

المشرف على الرسالة يثنى على جهدى فيها ويبشرنى بالفوز القريب، وقد اتصل بى ابنى أو أخى الأصغر، مؤكدا لى أنه سيكون فى القاهرة قبل الموعد لكى يحضر مناقشة الرسالة.. ولقد أهديتها لأبى أيضا وأضفت إليه هذه المرة «أمى العظيمة وإخوتى الأحباء وخطيبتى الفاضلة وأزواج الشقيقات وأبناءهم»، وقلت فى الإهداء إنهم الأقمار التى تضئ حياتى.

ولقد فكرت أن انتظر إلى ما بعد مناقشة الرسالة والحصول على الدرجة؛ لكى أكتب لك قصة تحولى من شاب مستهتر وطالب فاشل.. إلى رجل ملتزم، ثم أرجوك أن تكتب كلمة للشباب المستهتر العابث ألا يضيقوا بحرص آبائهم عليهم.. ومطالبتهم بالالتزام والنجاح لأنهم لا يستهدفون من ذلك إلا مصلحة هؤلاء الأبناء أنفسهم، ولكن جدّ شىء فى الفترة السابقة دفعنى لأن أعجل بالكتابة لك.. ذلك أن صورة وجه أبى الحزين كثيراً ما كانت ترد فى ذهنى فى مناسبات عديدة، حتى أنه لم يكن يمضى يوم طوال السنوات الثمانى عشرة الأخيرة، دون أن أرى بعين الخيال وجهه وملامحه المتعبة الحزينة. وحين أبلغنى أستاذى قبل أسبوع بتحديد جلسة مناقشة الرسالة، رجعت إلى البيت سعيدا، وأبلغت أمى الخبر فأشرق وجهها بالفرحة فإذا بى أستعيد صورة أبى فى مخيلتى فيخيّل إلىَّ أن وجهه تشيع فيه هذه المرة ابتسامة حيية.. وأنه ليس حزينا كما كنت

أراه دائما فى مخيلتى.. فهل يعنى ذلك أنه راض عنى الآن يا سيدى؟ وهل تكتب للشباب ما أردت أن أقوله لهم بسردى قصتى هذه عليك؟.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لاعجب فيما ترويه عن تحولك من شاب عابث مستهتر متعثر دراسيا إلى إنسان جاد وملتزم وموفق فى حياتك العملية والعائلية، عقب رحيل أبيك عن الحياة وتحملك مسئولية الأسرة من بعده، ذلك أن وقر المسئولية كثيرا ما يخلق الإنسان خلقا جديدا.. لأنها كالنار التى تصهر المعدن فتخلصه من شوائبه.. وتجلو جوهره الأصيل، وكذلك فعلت بك المسئولية حين تحملتها راضيا وراغبا فى التكفير عما أضعت من قبل فى اللهو والعبث، وآملا فى أن تطهرك هذه المسئولية الثقيلة من وخز الإحساس بالذنب تجاه أبيك الراحل، فقد أشفقت على نفسك من شعورك المؤلم بأنك كنت سببا أساسيا لأحزانه فى سنواته الأخيرة، فتفاعل لديك الإحساس بالمسئولية الإنسانية والمعنوية عن الإخوة والضعفاء والأم الحائرة بعد رحيل الأب مع الإحساس بالذنب تجاهه.. مع الضمير الحى الذى لم يقتله فيك اللهو والعبث كما كان الظن، فأثمر كل ذلك هذه الشخصية الإيجابية الفاضلة، وقدت سفينة الأسرة إلى مرفأ الأمان.

فأما تحولك من العبث والاستهتار إلى الالتزام والجدية، فليس من المستغرب، فنحن حين نركب سيارة يقودها غيرنا، فإنه يتحمل مسئولية أماننا وسلامتنا خلال الرحلة، وقد لانولى نحن انتباها كبيرا للطريق اعتمادا على قيامه هو بهذه المسئولية عنا، وقد ينصرف ذهننا خلال الرحلة عن الطريق إلى أشياء أخرى، فإذا أفقنا من سرحاننا فجأة على اهتزاز عنيف واكتشفنا توقف السيارة؛ لأن قائدها قد أصيب بنوبة عارضة.. وجدنا أنفسنا مطالبين بأن نقود نحن السيارة، وبأن نولى كل اهتمامنا وانتباهنا للطريق بدلاً منه، وبعد أن كنا ننصرف بذهننا عنه إلى التفكير بأشياء أخرى، لم يعد مقبولاً منا أن نفعل ذلك وإلا هلكنا وهلك الجميع معنا.

وكذلك فعلت أنت يا صديقى حين غاب قائد الأسرة.. وأصبح من واجبك أن تتقدم أنت إلى مقعد القيادة.. وتحمى إخوتك ووالدتك من أخطار الحياة، ولقد توقفت وأنا أقرأ رسالتك الجميلة أمام مارويته عن أنك كنت ترتدى قبل رحيل أبيك فاخر الثياب وتدخن السجائر الأمريكية وتثور إذا لم تجد ما تحتاج إليه من نقود لدى أمك أو إخوتك، فأصبحت بعد أن صهرتك نار المسئولية العائلية تكتفى بأجر المواصلات، وتضن على نفسك بالجديد من الثياب لكى تحافظ على مظهر إخوتك، وتذكرت ما رواه المسعودى فى «مروج الذهب» عن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز من أنه كان

قبل أن يلى الخلافة يحيا بالرغم من صلاحه ونزوعه إلى العدل، حياة الأمراء المترفة وكيف كان من أكثر الناس اهتمامًا بملبسه حتى كان «يشترى الحلة بألف دينار فإذا لبسها استخشنها» ويشترى القميص بأربعمائة دينار فإذا لمسه بيده قال: «ما أخشنه وأغلظه» ويهتم بعطره وعطر ثيابه حتى قيل عنه إنه «أعطر قريش»، فلما ولى الخلافة ورد المظالم بدأ بنفسه فتنازل عن كل ما كان له لبيت المال، واكتفى من المال والمتاع بما يسد احتياجاته الضرورية كحاكم عادل، وأصبح ثمن حلته «عشرة دراهم» ومع ذلك كان إذا لبسها استلانها» كما روى المسعودى، فماذا جد عليه وقد كان التقى الورع قبل الإمارة وبعدها؟.

لقد جد عليه همه بالمسئولية عن الآخرين.. ولم يكن من قبل مسئولا إلا عن نفسه ودنياه الصغيرة.. وصادفت هذه المسئولية ضميرا حيا فكان ما كان من أمره. فالمسئولية هى أن ينشغل الإنسان بأمر الآخرين كما ينشغل بأمر نفسه، وجوهر المسئولية الأبوية والأمومية هو الإيثار أى إيثار من يتحمل المرء المسئولية عنهم على نفسه.. بالرعاية والحماية والعطاء.. ولو تعارض كل ذلك مع اعتباراته الشخصية.

ومن أجمل ما قرأت فى تصوير هذه المسئولية الأبوية ما رواه الرواة عن المحدث اللغوى الفقيه، الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى إبراهيم بن إسحق الحربى من أنه كان لا يشكو إلى أمه

وبناته وزوجته الحمى إذا اصابته، وإنما يتحملها صامتا لكيلا يزعجهن بأمره.. وأنه كان به صداع بأحد جانبى رأسه فتحمله صابرا ٤٥ عاما لم يخبر به أحدًا، وأنه عاش عشر سنوات من عمره بفرد عين، بعد أن انطفأ نور الأخرى لم يخبر بذلك أحدا من أهله!.

وكان يقول فى تفسير ذلك إن «الرجل الحق هو الذى يدخل غمه على نفسه ولا يغم عياله».

والرأى عندى هو أن جوهرك كان سليمًا من الأصل، لكنه اعتوره ما قد يعتور المرء إذا استنام إلى أن هناك مظلة تحميه من صواعق السماء مهما أخطأ أو فعل.. فلما زالت عنك هذه المظلة برحيل والدك عن الحياة، استنفرت إرادتك ونفضت عنك العبث والأنانية واللهو، وشعرت بأن مرحلة الاستهتار قد انتهت من حياتك إلى غير رجعة، فنهضت لتحمل المسئولية التى كان يقوم بها والدك دون شكوى، ووجدت نفسك تردد لإخوتك من حيث لا تدرى نفس عبارات أبيك عن الجدية والالتزام والتفوق، التى كنت تضيق بها من قبل.. وأدركت ثقل المسئولية وتبعاتها وعرفت نوعًا من مشاعر الأم أو الأب الذى يحترق لكى يضئ حياة أعزائه.. ويحرم نفسه لكى يعطيهم.. ويكرس حياته لهم ناسيا خلال ذلك نفسه أو يكاد، ثم شعرت بالرغبة فى الاعتذار لأبيك بأثر رجعى عن كل ما خيبت أمله فيه وسببته له من أحزانه.. فكان قرارك باستكمال دراستك الجامعية

بنجاح ومواصلة دراساتك العالية والحصول على الماجستير ثم الدكتوراه بإذن الله.

لقد أحسنت الاعتذار يا صديقى لأبيك عن تخلفك الدراسى وانصرافك إلى بعض لهو الشباب وعبثهم خلال حياته، وكانت رعايتك لإخوتك ووالدتك ونفسك وطموحك الدراسى، هو خير اعتذار عن فترة العبث القصيرة والحمد لله فى حياتك الجادة الفاضلة.

فأية غرابة إذن فى أن يزورك طيف والدك الطيب باسما وراضيا عنك، بعد أن كان لا يجيئك من قبل إلا عاتبا وحزينا؟!.

لقد نلت سعادة الدارين بإذن الله ببرك بأمك وإخوتك واعتزازك بذكرى أبيك واتخاذك له مثلا أعلى.. فهنيئا لك مقدما درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى بإذن الله.. وهنيئا لك سعادتك المقبلة مع شريكة حياتك إن شاء الله.. وهنيئا لك قبل كل ذلك وبعده ما سوف تمطرك به السماء من جوائز السعادة والتوفيق والأمان. **«ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم» صدق الله العظيم.**

أما كلمتك إلى الشباب فإن رسالتها واضحة لكل ذى عقل.. وشكرا لك على رسالتك القيمة.

رسالة إلى أب

أود أن أكتب إليك هذه الرسالة منذ عدة أشهر، وكلما أمسكت بالقلم وبدأت فى ذلك تسقط دموعى على الورق، فلا أستطيع تكملة الرسالة، ولكن بعد أن تمالكت نفسى وخفت وطأة الأحزان عن صدرى، أستطيع أن أكتب إليك بتلك الكلمات لعلها تصل إليك، فأنا فتاة من أسرة متوسطة الحال، أو كما يقولون من طبقة الموظفين، ولى من الإخوة ثلاثة: «ولدان وبنت»، وأمنا ربة بيت وكان والدنا موظفا بإحدى الهيئات الحكومية، وأقول «كان» لأنه الآن فى ذمة الله فقد رحل أبى عنا منذ عدة أشهر فى حادث سيارة، وهو يقضى لأخى الأكبر مصلحة له فى بلدتنا..

فلقد كان والدى رحمه الله نوعا فريدا من البشر، إذ كان رجلا خدومًا لا يطلب منه أحد شيئا إلا وقضاه له إذا كان فى استطاعته، وكان أقاربنا وجيراننا وزملاؤه فى العمل يعرفون هذا جيدًا عنه، فلم يكن يمر عليه يوم إلا ويقضى فيه حاجة لأحدهم دون ضيق أو تبرم، كما كان يحمل بداخله كمًّـا من الرضا لو وزع على الارض كلها

لكفاها، وقانعًا برزقه لم ينظر يومًا إلى أرزاق الآخرين أو ممتلكاتهم بل ويحمد ربه دائما على الصحة والستر، وإذا ذكر أمامه أن فلانا عنده من الأملاك كذا وكذا قال: بارك الله له فيه وكنا نعيب عليه ذلك، ونعتقد أن الرضا والقناعة سلبية وعدم تطلع لتحسين مستوى المعيشة.

ومع الراتب الشهرى لوظيفته كنا نحيا حياة معقولة جدًا بفضل تدبير أمنا وحسن إداراتها لأمور البيت، التى كان والدى يتركها لها تمامًا واثقًا فى نجاحها فى هذه المهمة الصعبة، وكبرنا وتخرجنا فى الجامعة وعملنا فى وظائف مرموقة، وأصبح لكل واحد منا راتب ينفقه كيفما يشاء، ولم يطلب والدى يوما منا أن نساعده فى مصروف المنزل بل كان يعطى دون حساب. ومما أذكره له نشاطه غير العادى وتفانيه فى خدمتنا ونحن صغار. وبعد أن كبرنا وأصبحنا قادرين على القيام بخدمة أنفسنا، لم يكن يتحرج من أن يغسل لأحد إخوتى قميصًا أو جوربا أو يعد لنا الإفطار أو العشاء أو يخرج ليشترى لنا كل طلباتنا مع وجود إخوتى فى المنزل، ولم يطلب من أحد منا أن يقضى له حاجة يومًا.

وكان يعاملنى أنا وأختى مثل أخوينا، بل أفضل منهما وإذا أحس بأن أحدا منهما أغضبنا، كان يأتى به أمامنا ويخبره بأننا لا نقل عنه فى شىء بل إننا أفضل عند والدى منه؛ لأننا نذاكر ونساعد والدتنا فى أعمال المنزل، أما هو فلا فائدة منه سوى لنفسه.

وهكذا نشأنا ونحن نشعر بأن لنا «ظهر» يساندنا ويقف بجانبنا دائما، ومما أذكره له رحمه الله حنانه الذى ليس له حدود، ومدى انزعاجه إذا رأى واحدا منا يعانى نزلة برد أو عطس أمامه، إذ ينهض منزعجا يسأله عما به ويبادره بالشاى والليمون والدواء، وأتذكر أنه كان إذا مرض أحد منا كان هو الذى يعطيه الدواء، ولو فى منتصف الليل ويضع بجواره «المنبه» ليوقظه ويأتى ليعطيه الدواء، لدرجة أننا كنا نضيق أحيانا بهذا الاهتمام، ونضحك منه.

ولم نكن ندرى كم كان يحبنا، كنا نغضبه أحيانا بتصرفات الشباب غير الناضجة ونتضايق من عتابه لنا فكان يأتى لنا ويصالحنا وكأنه هو المخطئ، ولم نكن نقدر هذا له، ولم يكن يفعل هذا معنا فقط بل مع الآخرين أيضا. . إذا أخطأ أحد الزملاء أو الأصدقاء أو الأقارب فى حقه يثور ويغضب، وفى اليوم التالى ينسى ما حدث، بل ويكون على استعداد لتقديم الخدمات لهذا الشخص.

كان والدى رحمه الله طيب القلب لا يحمل فى قلبه ضغينة لأحد، يقدم كل ما فى وسعه لإسعاد الآخرين دون أن ينتظر منهم المقابل، وكانت لى معه عدة مواقف لن أنساها ما حييت. . عندما كان يتقدم لخطبتى أحد الشباب الذى يراه الجميع مناسبًا ولا أرتاح إليه فتثور أمى ويتعجب أخوتى، فيكون هو الوحيد الذى يقول إنها حياتها وهى حرة فيها أو يتساءل كيف تعيش مع إنسان لا ترتاح إليه؟

إنه نصيب ونصيبها لم يأت بعد، ثم ينصحنى بألا أتسرع فى الحكم على الأشخاص الذين يتقدمون لى، وأن أفكر جيدًا لأنه لن يفرض على الارتباط بإنسان لا أريده، حتى تعرفت على شاب على خلق ويناسبنى من كل ناحية، وحدثته هو وأمى بأن هذا الشاب يريد التقدم لخطبتى، فرحب والدى وقال إنه سيراه ويسأل عنه، وإذا وجده مناسبًا سيوافق عليه لأنه يتمنى سعادتى أولاً وأخيرًا وتزوجته.

وكما فعل أبى معى فى مسألة الزواج، فعل مع أختى وأعترف لك يا سيدى بأننى لم أر فيه هذه الصفات إلا بعد أن تزوجت وابتعدت عنه.. وجدتنى اشتاق إليه وإلى حنانه وعطفه ولمسة يده لكتفى وهو يربت عليه، ولكن للأسف الشديد لم أستطع يومًا أنا أو إخوتى أن نعبر له عن حبنا الشديد له، وأن نشعره بحناننا ورعايتنا له كما كان يفعل معنا، لقد رحل والدى عنا دون كلمة وداع، ودون أن يكون أحدٌ منا بجواره وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، رحل بعد أن ودع أقاربنا جميعهم دون أن يودعنا نحن أبناءه الذين نعمنا بخيره سنوات طويلة ومازلنا، رحل دون أن يعرف كم كنا نحبه ونتمنى أن نقبل التراب الذى يمشى عليه، وتوفى والدى ودفن دون أن نراه ونلقى عليه النظرة الأخيرة ولم يتبق لنا منه سوى ذكرياتنا معه، وأمى التى أدعو الله أن يطيل عمرها ويقدرنا على أن نوفيها حقها ونظل فى رعايتها وخدمتها ماحيينا.

والآن أعرف إنك تتساءل وماذا يهم القراء فى هذه القصة؟ إننى أود أن أبعث إلى روح والدى رسالة حب وعرفان بالجميل، وأن أقول أنه لو عاد الزمن إلى الوراء لما انتقلنا من تحت قدميه هو وأمى نخدمهما ونسهر على راحتهما، كما أود أن أبعث برسالة لكل شاب وفتاة، ولكل ابن وابنة أن قبِّل يد أبيك وأمك صباحًا ومساءً، وعبر لهما عن حبك بكل الطرق، ولا تبخل عليهما بجزء مما وهباه لك طوال عمرك، ولو استطعت أن تحملهما فوق رأسك ولا تدع قدميهما تلمس الأرض فأفعل، وافعل هذا وهما على قيد الحياة لتسعدهما؛ لكيلا تندم على تقصيرك فى حقهما بعد أن يرحلا دون عودة.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

من المؤسف حقا أن يرحل عنا الأعزاء دون أن «يعرفوا» عمق ما تحمله لهم قلوبنا من محبة وإجلال واعتزاز، ودون أن تواتينا نحن القدرة على أن نسعدهم فى حياتهم بحبنا لهم «ونبلغهم» به بأحر الكلمات وأصدق المشاعر، بدلا من الاستنامة الغافلة إلى توهم أنهم سيظلون فى الجوار إلى الأبد.. وأننا سنستطيع فى غد أن نبلغهم بما «نؤجل» اليوم إعلانهم به.. أو نتحرج منه.. أو نظنه يتنافى مع نضج العمر، وما بلغناه فى الحياة من مراتب ودرجات.

مع أننا جميعا نحتاج كل يوم وربما كل ساعة لأن نذكِّر من نحبهم بحبنا لهم.. ولأن يذكرنا من يحبوننا بمشاعرهم تجاهنا.. لكى نستمد

منها القدرة على الاستمرار والإحساس بالرضا عن النفس والحياة. ولقد ذكرتنى رسالتك بما كتبه صادقا الأديب البرازيلى باولو كويلو حين قال: «عرض علينا الحب، لكننا أدرنا ظهورنا له ببساطة. إذ كم مرة منعنا الخوف أو الحرج أو الاستكبار أو الاستسلام للعادة من أن نقترب من شخص، ونقول له إننا نحبك!».

وليس هناك أسمى ولا أعمق أو أخلد من «الحب الذى عرضه علينا» أباؤنا وأمهاتنا منذ اليوم الأول لمجيئنا للحياة.. ولا من الحب الذى «عرضناه نحن» على أبنائنا منذ بداية رحلتهم فى الحياة.

فما أعجب إلا من عاجز عن التعبير عن حبه لأبويه أو أبنائه، بالفعل والكلمات على السواء، وما أعجب إلا من «مؤجل» لإعلان هذا الحب وإسعاد الطرف الآخر به إلى ما بعد فوات الأوان، إن رسالتك يا سيدتى الشابة اعتذار جميل لأبيك الراحل يرحمه الله، وإقرار بفضله وإعلاء لكل ما كان يمثله فى حياتكم وفى الحياة بصفة عامة من قيم إنسانية وأخلاقية وتربوية شريفة.. فشكرا لك عليها وأرجو أن يتفكر فيها وفى معانيها جيدا كل الأبناء!.

* * *

المقدمات الخاطئة

تعودت أن أقرا فى بريد الجمعة هموم الآخرين، فتهون إلى جوارها مشاكلى.. لكنى قد بلغت اليوم الحد الذى أجد نفسى معه فى أشد البلاء والظلم.

فأنا سيدة شابة، كنت قد تعرفت خلال دراستى بالجامعة على شاب يكبرنى بعامين، وبعد أن تخرجنا تمت خطبتنا.. وتزوجنا بعد ذلك بثلاث سنوات.. ولن أكذب فأقول لك إننا قد تزوجنا بعد قصة حب رائعة كما تقول سيدات كثيرا فى رسائلهن ولا أن فترة خطبتنا كانت أسعد أيام العمر.. لأن ما حدث كان على عكس ذلك تماما، فكانت فترة التعارف مليئة بالعذاب والمعاناة، وقررت خلالها أكثر من مرة الانفصال عنه، وفى كل مرة كان يرجع إلىّ ونبدأ قصتنا معا من جديد، ولا أعرف حتى الآن لماذا كنت أصدقه فى كل مرة.. وأتوسم فيه أنه سيكون إنسانا مختلفا.

وقد استمر الحال على ما هو عليه خلال فترة الخطبة، فلم تكن أقل معاناة من فترة الحب والتعارف.. لأنه قد أضيفت إلى طباع

خطيبى الصعبة خلالها مشاكل الشقة والجهاز وخلافات العائلتين، لكنى كنت أقول لنفسى دائما إنه يحبنى وأنا أحبه، وأنه بمجرد أن يجمعنا بيت واحد ستزول كل الخلافات والعقبات، وسنصبح أسعد زوجين فى العالم..

وهكذا احتملت فترة الخطبة، التى دامت ثلاث سنوات.. كانت معاملته لى خلالها فى غاية السوء.. ووصلت علاقتنا خلالها إلى حافة الانهيار عدة مرات.. وفى كل مرة كنت أفقد فيها صبرى وأطلب إنهاء الخطبة، كان يتحول إلى حمل وديع.. ويعدنى بأنه سوف يغير طريقة تعامله معى.. فأتراجع ونستمر فى خطبتنا ثم لا يلبث أن يرجع إلى سيرته الأولى من جديد.

وأخيرًا تزوجنا وحاولنا خلال الفترة الأولى من الزواج أن نسعد بحياتنا، وننسى كل ما جرى بيننا خلال فترتى الجامعة والخطبة، فلم تمض عدة شهور فقد حتى بدأت الخلافات بيننا من جديد، وكان من الممكن أن تكون هذه الخلافات عادية ومما يحدث بين أى زوجين، إلا أن ما أصبح يرافقها من سب وإهانة وضرب إلى حد أن يتورم منه جسمى قد دخل بى فى مرحلة جديدة من المعاناة، لم أألفها فى حياتى وأنا التى نشأت فى أسرة هادئة ومحترمة، لم أر فيها سوى المعاملة الهادئة المحترمة والمودة والرحمة بين الزوجين.

وفى كل مرة كنت ألتمس له العذر فيما يفعل وأبرره لنفسى بأنه

حين يتخلص من الضغوط والأعباء الواقعة عليه فى عمله أو مع أسرته، فلسوف يرجع إلى رشده، لكنى وبعد ثلاث سنوات من الزواج أنجبت خلالها طفلة، أرى سوء معاملته لى يتصاعد كالخط البيانى الذى يتجه دائمًا إلى أعلى، ويتدرج من السب واللعن إلى الضرب.. إلى تحطيم الفازات وتحف المنزل إلى استخدام الشبشب، ومبرره دائما فى ذلك هو اننى قد أخطأت فى حقه أو عاندته، والحق أننى وبعد أن تحملت كثيرا لم أعد أطيق السكوت وأصبحت أرد عليه، وألعن اليوم الذى رأيته فيه، فى محاولة من جانبى لمعادلة إحساسى بأننى مقهورة أو مغلوبة على أمرى..

والمشكلة هى أن زوجى يؤمن بأن من واجبه كرجل أن «يربى» زوجته ويعاقبها بما يعن له من عقوبات كالسب والضرب.. والحرمان من الخروج والحبس فى غرفة من غرف البيت، يطلب منى ألا أغادرها طوال يوم التكدير، حتى ولو إلى الحمام، أما الزوجة فليس لها إلا أن تطيع زوجها، وإذا رفضتُ القبول بالعقوبة فلا يدعنى أنام إلا وأنا «كالقتيلة» من الضرب، وكل جسمى يؤلمنى.

ولقد فكرت كثيرا فى الطلاق لكنى أخشى على ابنتى من عواقب الانفصال إلى جانب أننى قد فقدت الثقة فى نفسى.. ولست على يقين من أننى استطيع مواجهة الحياة وحدى.. كما أن زوجى العزيز يرى أننى لا أصلح لشىء فلا أنا ناجحة فى نظره كزوجة

ولا كأم ولا كسيدة لأننى غبية ومستهترة وشخصيتى ضعيفة ومهزوزة . . . إلخ ، والحق أننى أشعر بأن بداخلى شيئا مكسورا بالفعل حتى أننى لا أقوى على محادثة أى صديقة لى لشعورى بأننى لست امرأة لها كيانها . . وإنما أنا أقل من كل السيدات ، اللاتى أعرفهن من ناحية الشخصية والكيان وليس من ناحية الشكل أو المادة .

ولا يهون على بعض ما أعانيه مع زوجى إلا إحساسى الداخلى بأن الله يعاقبنى بذنبى ؛ لأنى قد أغضبت أبى وأمى وتحديتهما وأصررت على الارتباط بزوجى وإتمام زواجى منه بالرغم من أنهما قد اكتشفا عيوبه ونصحانى كثيرا بعدم الزواج منه ، فتزوجته رغما عنهما وأنا أعلم أنهما غير راضيين عنى . . ولهذا فإنى أعتبر نفسى الابنة العاقة التى لم تطع أبويها ، فأذلها الله بزوج يفترى عليها وليس أمامها إلا أن تطيعه وتتحمله . .

والمفارقة هى أن زوجى يعتبر نفسه طيب القلب وحنونا ويراعى الله فى بيته وزوجته ، ولا يفوته فرض من الفروض الدينية ، لكنه «إذا خاصم فجر» وقد قررت ألا أنجب ثانية حتى لا يصاب أبنائى بالعقد النفسية بسبب هذا الأب الظالم المستبد . . وأنا الآن فى صراع بين هل أربى ابنتى في هذه البيئة غير الصالحة نفسيًّا وتربويًّا لتنشئة أطفال أسوياء ، أم أنفصل عن زوجى وتتحمل ابنتى عواقب هذا

الانفصال، وإذا كنت أنا أستحق هذا العقاب لأننى أغضبت أبى وأمى، فما ذنب طفلتى؟.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

المقدمات الخاطئة لابد أن تؤدى إلى نتائج مماثلة، وأنت قد لمست خلال فترة التعارف الأولى وطوال فترة الخطبة التى استغرقت ثلاث سنوات كل سلبيات شخصية زوجك التى حذرك منها أبواك كثيرا، وبالرغم من ذلك فلقد تجاهلت النذر الخطيرة وتمسكت بالأمل الواهى الذى يتعلق به آخرون فى مثل ظروفك، فى أن ينجح الحب فى النهاية فى احتواء السلبيات واستكمال المسيرة فى أمان.

ولقد قلنا مرارا إنه إذا كان الحب قلبا غفورا، فإنه لا يكفى وحده لتهيئة الظروف الطبيعية لاستمرار الحياة الزوجية، لأن العنصر الأساسي فى ذلك هو حسن المعاشرة والاحترام المتبادل بين الطرفين واعتدال المزاج النفسى لكل من الزوجين وتقارب رؤيتهما للحياة، وتوصلهما معًا إلى حل مرض لهما معًا للمشاكل الأساسية كالإنجاب والعمل.. ومستوى المعيشة والدخل... إلخ. أما الاعتماد على الحب وحده كقاسم مشترك أوحد بين طرفين لا يربط بينهما بعد ذلك أى جامع آخر، فإنه لا يؤدى غالبا إلا إلى الفشل والمعاناة بعد فترة تطول أو تقصر.

وسلبيات شخصية زوجك كما فهمتها من سطور رسالتك هى الحدة والعصبية.. وصغر السن، حيث لا يزيد فارق العمر بينكما

على عامين، ومفهومه الخاطئ عن حق الرجل فى «تربية» زوجته بالسب والضرب والحبس والحرمان من أى شىء يراه مناسبًا للحال.

ولقد توقفت فى رسالتك أمام الأثر النفسى السلبى الذى خلفه اعتياده معاقبتك بالضرب المبرح.. وهو افتقادك الثقة فى النفس وإحساسك بالعجز عن مواجهة الحياة وحدك، وشعورك بالدونية تجاه غيرك من السيدات من ناحية الشخصية والكيان، وهى كلها نتائج طبيعية للقهر وافتقاد الإحساس بالجدارة والكرامة الإنسانية والأمان.

ومن عجب أن هذه الآثار السلبية قد تدفع من يتعرض لها لزيادة الاعتماد على من يقهره ويسحق شخصيته بدلا من الثورة عليه فى بعض الأحيان، تماما كما قد تتعلق الشعوب المقهورة فى بعض المراحل بالطغاة الذين يحكمونها ليس حبا لهم.. وإنما خوفا من التغيير والمخاطرة؛ لأنهم قد حطموا إرادتها بالقهر والإذلال وأفقدوها الثقة فى قدرتها على امتلاك مصائرها.

وقديما قال أديب الإنجليزية الأعظم شكسبير على لسان كاسيوس فى مسرحية يوليوس قيصر: «لو لم يكن أهل روما وعولا.. لما أصبح قيصر أسدا» وما ينطبق على الشعوب قد ينطبق فى بعض الأحيان على الأشخاص فى حياتهم الخاصة، وجزء كبير من احتمالك لسوء عشرة زوجك لك يرجع إلى تسليمك فى أعماقك باعتباره عقابا سماويا لك على تجاهلك للمقدمات الخاطئة، وتحديك

لإرادة أبويك بالمضى فى مشروع الزواج بالرغم من كل النذر المحذرة، غير أن لكل «عقاب» حده الأقصى يا سيدتى.

ومن حقك على زوجك الذى مازلت بالرغم من كل شئ تحبينه وتتمسكين بالأمل فيه أن يحسن عشرتك، ويتخلص من مفهومه الخاطئ عن واجب الرجل فى «تربية» زوجته. ويكف نهائيا عن مد يده بالأذى إليك مهما تكن أسبابه ومبرراته.. ومن واجبكما أن تتوصلا معا إلى كلمة سواء، يستجيب عندها كل طرف منكما إلى مطالب الآخر منه لكى تتفاديا أسباب الأحتكاك والصدام.

فإذا كان المثل الإنجليزى يقول إن الأمر يحتاج إلى شخصين لكى تقع مشاجرة، وأنه لا يمكن أن تقع مشاجرة بين طرف واحد ونفسه! فإن ذلك يفرض على كل منكما أن يتفادى بقدر الإمكان استفزاز الآخر أو استثارته.. أو تجاوز خطوطه الحمراء، التى يعلم علم اليقين أنه لا عائد لتجاوزها إلا الصدام والعراك.

وفى كل الأحوال فإن التزام الحدود المرعية فى الخلاف كفيل بتجنب الشطط والانفلات والإيذاء البدنى والمعنوى.

فأدعى زوجك يا سيدتى إلى فتح صفحة جديدة فى حياتكما معا، لا يكون فيها أى مجال للإكراه البدنى والإهانات الجارحة، واشعريه بعزمك على عدم قبول الإهانة والإيذاء بعد ذلك، ولو أدى الأمر إلى التسليم بفشل التجربة وتحمل تبعات الفشل أيا كانت.

ولا بأس إذا اقتضت الضرورة وبعد أن تستنفدى معه كل الحيل فى أن تستعينى عليه بأهلـه أولا ثم أهلك ثانيـًا، وذكريـه فى كل حين بأن «طيبة قلبه» و«حنانه» و «رعايته لحدود ربه» فى بيته وأسرته لا تكتمل إلا بأن يتأسى بالرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فى حسن معاملته لزوجته، وهو القائل «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى» صدق رسول الله ﷺ، فإن لم تجد كل الحيل فى النهاية فلا مفر من الاعتراف لنفسك بخطأ الاختيار وتصحيحه بنفس «القدرة» التى استطعت بها من قبل تجاهل كل علامات التحذير.. والاستمرار فى مشروع الزواج الذى لم يرضن عنه أبواك وحذرا منه منذ البداية!.



الصورة الحقيقية

لن أبدأ رسالتى بأن أقول إننى لم أكن اتصور أنه سوف يجئ يوم أكتب لك فيه، كما يقول كثيرون ممن يرسلون إليك بمشاكلهم.. وإنما سأقول لك إننى فكرت عشرات المرات من قبل فى أن أكتب لك لا طلبا لحل مشكلتى، وإنما لكى أتخفف مما تحمله نفسى من هموم..

فأنا فتاة نشأت يتيمة الأب والأم فى زمن، خلت فيه قلوب بعض البشر من الرحمة.. ليس كل الناس ولكن بعضهم فمازال فى الدنيا الرحماء، لكن أقدارى شاءت لى التعامل مع غيرهم فى كثير من الأحيان.

ولقد وجدت نفسى أعيش مع أخ يكبرنى بثمانية أعوام وأخت تصغرنى بثلاث سنوات.. وأخى هو المسئول عنا.. وهو رجلنا الذى نستند إليه وننتظر منه الحماية والعطف والحنان، ولكن لا أتذكر - على العكس من ذلك - إنه قد قال لى أو لأختى ذات يوم كلمة حب أو حنان واحدة، وإنما كان دائما قاسيا علينا وجافا معنا، وكلما حدثته

عن حاجتنا للعطف والحنان منه ونحن لا نعرف لنا أبا أو شقيقا غيره، كان يسخر منى ويقول لى كيف أعطيكما الحب والحنان، وأنا لم أتذوقهما من قبل!..

كما لا أتذكر يوما من الأيام أنه رجع إلينا ومعه قطعة قماش حتى ولو كانت بالية ليقدمها لى أو لأختى فى مناسبة عيد أو غيره من المناسبات، وإنما كنا نعتمد على ما يعطيه لنا الأقارب من ملابسهم المستعملة، مع أن له دخلا يوميا لا بأس به، وهو إنسان متعلم ويعى جيدا أنه مسئول عنى وعن أختى.. لكن التضحية توهب ولا تطلب كما قرأت لك فى بعض ردودك.. وهناك من يضحى من أجل الآخرين، وهناك من يضحى بالآخرين من أجل نفسه، وأخى للأسف من النوع الثانى.. وكان ولايزال أنانيا يحب دائما أن يعتمد على الغير فى شئون حياته.

فمضت حياتنا معه طوال السنوات الماضية فى سلسلة من الإهانات والضرب والسب ولعن أمنا، التى لا تستحق منه إلا الدعاء لها بالرحمة، ولم يكن يهدأ لها بال وهى على قيد الحياة إلا حين تطمئن على عودة شقيقنا واستقراره فى فراشه.. فهل تستحق الأم التى حملت ابنها تسعة أشهر أن يلعنها الابن وهى بين يدى ربها؟!.

ولقد مضت بنا الأيام بخيرها وشرها إلى أن تخرجت، والتحقت بإحدى الوظائف واستغنيت والحمد لله عن الملابس المستعملة..

وتعودت مع أختى بفضل من الله أن نكون مع الناس وللناس، فلم نرث الأنانية عن شقيقنا، وإنما تعودنا على العطاء ولو كان قليلا، وعلى الاعتراف للآخرين بالجميل ولو كان بسيطا.

لكن المشكلة يا سيدى هى أن أخى يزداد سوءا معنا يوما بعد يوم، ونظراته إلينا تزداد حدة وقسوة ولا أدرى لماذا مع أنه مع الآخرين فى منتهى الرقة، وأمام الأهل يبدو فى صورة مختلفة تماما، ولو كان يتلطف بنا عشر تلطفه مع الآخرين لكنا قد عشنا فى غاية السعادة.

إننى لا أدرى لماذا كل هذه القسوة من أقرب الناس إلينا.. والغرباء يتعاملون معنا بكل رقة.

وكل صديقاتى يقلن لى: اصبرى.. ولسوف يكون لك بإذن الله بيت وزوج وأولاد، وسيعوضك ربك عن كل سنوات العذاب، لكنه حتى لو تحقق ذلك فلسوف ينغص علىَّ سعادتى تفكيرى فى أختى وفيما تلقاه من قسوة وهوان مع أخى.. فكيف حتى ولو تحقق هذا الحل السعيد، أدعها وحدها تحت رحمة من لم يرحمها صغيرة ولا كبيرة؟.

إن سؤالى إليك فى ختام رسالتى هو: من لليتيم يا سيدى إذا قسا عليه أقرب الناس إليه.. ولم يرق له قلبه؟.

ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر**﴾.

إننى أرجوك أن تكتب لكل من يجد نفسه مسئولا عن يتيم مغلوب على أمره أن يتقى الله فيه، ويتذكر قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده..** ﴾ وقوله: ﴿ **واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله..**﴾ وقوله: ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾.

وأرجوك أن تذكر الناس بأن لهذا العالم ربا قويا يقول للشىء كن فيكون، وقادرا على أن يبدل الأوضاع ويحمى الضعيف ويقهر القوى المفترى بقوته على الضعفاء، كما أرجو أن يستجيب الله لدعائى ويتصفح أخى الجريدة ولو لمرة واحدة فى حياته، فيقرأ رسالتى هذه وكلماتك الحكيمة له فتمس قلبه، وتحرك الجانب الإنسانى فيه وترقق قلبه على شقيقتيه.. وشكرا لك والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إذا كان شقيقك لا يتصفح الصحف فلا بأس بأن ينبهه أحد إلى قراءة رسالتك المؤلمة هذه، لكى يرى فيها صورة نفسه الحقيقية ويستبشعها.. فلا شك أنه ليس مما يسعده بنفسه أن يراها فى صورة الأخ الأكبر، الذى لم يرحم يتم شقيقتيه ولا ضعفهما وإنما قسا عليهما بدلا من أن يترفق بهما، وضاق بمسئوليته الإنسانية عنهما،

بدلاً من أن ينهض بها راضيا ومستبشرا بما سوف يناله من خير عميم وأجر عظيم جزاء وفاقا لقيامه بها.

والإنسان يحتاج من حين لآخر إلى من يضعه أمام مرآة لا تكذبه وتعكس صورته الحقيقية، وليست تلك التى يتوهمها عن نفسه أو يظهر بها أمام الآخرين.

ولا شك فى أن الصورة الخارجية لشقيقك أمام الأهل والآخرين هى صورة الأخ الأكبر الذى اختارت له أقداره أن يكون الأب الرحيم لشقيقتيه اليتيمتين والمسئول الأول عنهما.. وهى صورة تبعث على الاحترام وتثير التعاطف ويستفيد منها صاحبها معنويا بين الأهل والآخرين بقدر ما يتكبده من عناء بسببها.

ولقد كان من الممكن أن يكون المظهر كالمخبر.. ويكون شقيقك هذا ممن قال عنهم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «من وضع يده على رأس يتيم رحمة.. كتب الله له بكل شعرة مرت عليها يده حسنة»، لولا أنه قد ضيع معظم أجره عن كفالته لاختيه بقسوته عليهما وإهانته لهما وضيقه بمسئوليته عنهما.

وبعض من تضعهم أقدارهم فى موضع المسئولية عن أخواتهم اليتامى يسخطون على أقدارهم أن حملتهم هذه المسئولية، وقد كانوا يرجون لأنفسهم أن ينطلقوا فى الحياة كالطير الشريد الذى لا تثقله القيود، ويخلطون فى ضيقهم بهذه المسئولية الإنسانية بين الأسباب

والنتائج، فينفسون عن ضيقهم بمسئوليتهم بالضيق برموزها، وهم للأسف هؤلاء الاخوة الحيارى اليتامى الذين لم يختاروا لأنفسهم اليتم ولا لشقيقهم الأكبر المسئولية عنهم.. وإنما هم ضحايا لأقدارهم كما هو ضحية لها.

ولقد شرفه ربه بالمسئولية عنهم، فلم يحسن رعاية هذه المسئولية ولم يدرك شرفها ولا أثرها الإيجابى العميق فى حياته، فلقد كرمه الأهل والأقربون لحمله هذه المسئولية.. وفتحت أمامه أبواب لم تكن لتفتح لو لم تكن فى عنقه تلك الأمانة.. وعُفى من أخطائه وتجاوزاته عما لم يكن يعفى عنه، لولا تقدير الآخرين لثقل مسئوليته. ونجا هو نفسه من عثرات وكبوات لم يكن لينجو منها، لو لم تكن السماء قد ترفقت به رعاية لمن يعتمدون عليه فى حياتهم، فكيف يضيق عاقل بما يشرفه به ربه؟ وكيف تسول له نفسه أن يقسو على ودائع السماء لديه، وقد وعده ربه بالجزاء الأوفى فى الدنيا والآخرة إن هو أحسن رعايتها.. ورعى حدود ربه فيها؟.

إن بعض أسباب عنائك أنت وشقيقتك وأمثالكما، هو أن من يتحمل هذه المسئولية يواجه دائما من جانب الإخوة الضعفاء الانكسار النفسى أمامه.. فلا يعاتبون على عدوان إذا اعتدى عليهم.. ولا يشكون من إساءة إذا أساء إليهم.. فيغريه ذلك للأسف بالتمادى.. وانتهاك حقوقهم وتمييز النفس دونهم.. وهذا

هو تفسيرى لما أشرت إليه فى رسالتك من «أنانية» شقيقك فى تعامله معكما..

والاعتراف بالجميل لا ينبغى له أن يعنى الانكسار النفسى، والتنازل عن الحقوق، وأهمها حق التعامل الكريم والإنسانى معكما، دون تجن أو عدوان.

فإذا كان الأمس هو ذكرى اليوم والغد هو حلمه، كما يقول الشاعر جبران خليل جبران.. فإن حلم اليوم بالنسبة لك ولشقيقتك هو أن يمسح الغد القادم كل الأحزان، ويهيئ لكما كل ما تستحقان من سعادة وكرامة وأمان، ولكى يتحقق ذلك بإذن الله فإنه من المفيد لكما ألا تكتفيا بعد الآن بالشكوى الباكية للصديقات من قسوة الأخ أو سوء معاملته، مع كبت المشاعر والآراء فى مواجهته، وإنما يجدر بكما أن تجتازا حاجز الرهبة والانكسار فى تعاملكما مع شقيقكما إلى التعامل الطبيعى، الذى يسمح لكما بمعاتبته دون صدام معه إذا أساء إليكما.. ومناقشته فى أسباب سوء معاملته لكما إذا تمادى فيها، ومطالبته بأن يحدد لكما ما ينكره عليكما؛ لكى تجتنباه وتعيشوا معًا فى كرامة وسلام، وما يريده منكما لتجتهدا فى الالتزام به.

فهكذا ينبغى أن تكون علاقة الإخوة ببعضهم البعض.. عتابا وحوارا ومناقشة ودية.. وليست كبتا وأنينا وعجزا عن الحوار.

ولا شك فى أنه سوف يستجيب للحوار معكما تدريجيا، ويغير

من معاملته القاسية لكما؛ لأنه فى النهاية شقيقكما الذى لا غناء لكما عنه ولا حياة له بدونكما مهما تراءى له غير ذلك، ولا بأس عند الضرورة من الاحتكام للأهل، وتدخلهم بينكم، غير أنى آمل فى ألا تحتاجا إلى ذلك.. كما أرجو أن أقرأ لك فى القريب العاجل رسالة أخرى تطمئنينى بها على تحسن الأحوال إن شاء الله.

* * *

شجاعة الحياة!

منذ شهور وأنا أفكر فى أن أكتب إليك.. ولا أجد فى نفسى القدرة على الإمساك بالقلم..

فأنا رجل فى الثانية والأربعين من عمرى، نشأت بين أب شيخ يعمل بالتدريس بالمعاهد الدينية، وأم لا تعرف من الدنيا سوى طاعة زوجها والحدب على أبنائها، وشقيق يكبرنى وأخت تصغرنى، وتنفست منذ طفولتى هواء الحب العائلى والحياة الهادئة الوادعة.. فأبى يوجهنا ويرشدنا إلى ما فيه صلاح أمرنا وأمى تفيض علينا بحبها وحنانها وعطفها فى كل حين.. وبالرغم من قلة موارد أبى فلقد عشنا حياة راضية دائما بفضل طيبة أبى وتدينه، وحكمة أمى وتفننها فى إدارة شئون بيتنا، فلم نشعر ذات يوم بالحرمان ولا بالنقص، وكان أبى يلبى دائما كل مطالبنا فى حدود قدرته، وكانت لنا مسراتنا العائلية الجميلة.. كالتفافنا حول أبينا بعد أن نرجع من صلاة الجمعة لكى نلعب معه الدومينو، التى كان يجيدها أبى أجادة مطلقة منذ أيام دراسته بالأزهر، ويهزمنا فيها الواحد بعد الآخر قبل أن نجتمع حول

غداء يوم العطلة المميز، وكليالى حفلات أم كلثوم الشهرية التى كان يستعد لها أبى بشراء الفول السودانى واللب والبندق، ونضع أدوات صنع الشاى على المائدة القريبة لكى نقوم بإعداده خلال الاستماع، ويطرب أبى لسماع الغناء، ويلفت انتباهنا إلى معانى الكلمات الراقية وأبيات الشعر الرصين التى تشدو بها أم كلثوم، وكمناسبات نجاحنا فى الشهادات العامة، ودعوته لبعض زملائه الشيوخ إلى العشاء احتفالا بنجاحنا وزهوه بنا أمامهم فى كل مرة، ودعائه الدائم لنا بالفلاح والنجاح فى الحياة.

فعشنا فى رحابه حياة آمنة سعيدة، ورحل عن الدنيا راضيا مرضيا ونحن فى سنواتنا الأخيرة بالتعليم الجامعى، فبكيناه وافتقدنا حبه وعطفه وتعاهدنا على أن نحقق له آماله فينا، فلم يمض على رحيله ثلاث سنوات حتى كنا قد تخرجنا كلنا فى كلياتنا.. وأثمر دعاؤه الصالح لنا فعملنا جميعا، وخطبت الأخت الوحيدة لمدرس زميل لها.. وتكاتفنا بمرتباتنا ومعاش الأم والأخت على تجهيزها وتزويجها معززة مكرمة، وقضينا بعد زواجها ثلاثة أعوام نسدد أقساط جهازها من مرتبى ومرتب شقيقى.

وببركة الأب الصالح أتيحت لشقيقى الأكبر فرصة العمل فى إحدى الدول العربية، عن طريق زميل وصديق لأبى يعمل هناك، فسافر مودعا منى ومن أمى وأختى بالدعاء.. وخلا بيت الأسرة علىّ

وعلى أمى. فأصبحت متعتى الأولى أن أجلس إليها بعد الغداء كل يوم لأتناول الشاى معها، وأسمع حديثها العذب وأحدثها عن نفسى وعن يومى وما فعلت فيه، ثم أنهض للخروج فى الأصيل للقاء الأصدقاء.

وفى جلسة العصر هذه كثيرا ما حدثتنى أمى عن أمنيتها الغالية فى أن أتزوج أنا وشقيقى، ويسعد كل منا بزوجته وأبنائه.

ولم تكتف بالأمنيات وإنما راحت ترشح لى ولشقيقى كل يومين عروسين جديدتين.. وتحث أخى فى التليفون على الموافقة، إلى أن نجحت جهودها مع شقيقى بالفعل، وجاء فى أجازة ليرى العروس المرشحة واقتنع بها، ولم تمض شهور حتى كان قد تزوجها واصطحبها معه إلى مقر عمله.

أما أنا فلقد «عصلجت» معهما ولم أقتنع بمن رشحتهن لى إلى أن جاء النصيب، والتقيت بزميلة لى فى العمل وأحببتها وأحبتنى وخطبتها بمباركة أمى.. ورحبت فتاتى بعد مقابلتها لأمى عدة مرات بالإقامة معها فى مسكننا بعد الزواج، وبذلك حلت مشكلة الشقة التى يمكن أن تؤخر زواجى بضع سنوات وتزوجنا.. ووجدت زوجتى التى نشأت فى أسرة عانت من الشقاق بين الأبوين فى بيتنا جوا عائليا مختلفا سعدت به، ودهشت لكم الحنان الذى تغدقه عليها أمى. وأنجبنا طفلينا خلال ثلاث سنوات، وعلَّمت أمى زوجتى كل

أسرار الأمومة.. وحملت عنها عبء رعاية الصغيرين خلال فترات عملها.. وقالت لى زوجتى بعد ولادة الطفل الثانى إنها لو خيرت الآن بين الاستمرار فى الإقامة مع أمى، أو الاستقلال بمسكن خاص بها لرفضت بإصرار أن تغادر بيتنا..

أما شقيقى فلقد أنجب هو الآخر من زوجته طفلين واستقرت حياته فى الغربة، واشترى لنفسه شقة فى مصر، وأثثها لكى يقضى بها شهر الإجازة كل عام، فأصبح يمضى بها بضعة أيام ثم تلحق زوجته بأهلها مع الطفلين، ويسرع هو بالانتقال إلى البيت القديم كما نسميه ليقضى معظم الإجازة بيننا.. ويستمتع بجلساتنا الهانئة، ونمضى السهرة فى شرفة البيت أنا وهو وأمى نجتر ذكرياتنا العائلية فى نشوة واستمتاع حتى الفجر.. ثم تمضى أيام أجازته كالبرق ويغادرنا على أمل اللقاء فى العام المقبل، وبإلحاح من زوجته اشترى أخى «شاليها» فى مدينة ساحلية بالوجه البحرى، لكى يقضى فيه بعض أيام أجازته الصيفية..

ومنذ ذلك الحين أصبح أخى يقضى بعض أجازته فى هذا الشاليه ويلح علينا للسفر إليه لبضعة أيام كل مرة، فترفض أمى. وفى صيف العام الماضى لم يحضر أخى فى موعده السنوى بسبب ظروف فى عمله اضطرته لتأخير اجازته.. وانقضت الشهور دون أن يحضر حتى فقدنا الأمل فى عودته ذلك الصيف.. لكننا فؤجئنا بحضوره

فى أواخر شهر أكتوبر، وإصراره هذه المرة على أن نسافر معه إلى المصيف لكى تمضى معه بعض الأيام هناك، ورفضت أمى كالعادة.. وقالت له إن الصيف كاد ينقضى، وإنه من الأفضل له أن يقضى أجازته معنا فى المدينة لكنه أصر على سفرها وسفرنا معه، واستجابت أمى فى النهاية لإلحاحه، ورجته أن يمهلها أسبوعًا يقضيه وحده مع أسرته فى المصيف ثم تلحق به..

وبعد أسبوع رجع أخى ليصطحبنا معه فى سيارة أجرة.. لكن ظروف عملى لم تسمح لى بالسفر، فاصطحب أمى وزوجتى والطفلين على أن ألحق بهم بعد ثلاثة أيام.. وسافر الجميع فى الصباح الباكر سعداء بهذه الأجازة غير المتوقعة.. وخرجت أنا إلى عملى.. ثم رجعت إلى البيت الخالى وداهمنى إحساس غريب بالانقباض، حتى ندمت على سماحى لهم بالسفر دونى.

وحاولت أن أغفو بعض الوقت فلم يطاوعنى النوم، فنهضت إلى الحمام واغتسلت وصليت العصر، ثم ارتديت ملابسى استعدادا للخروج، فإذا بجرس الباب يدق وفتحته فوجدت أمامى أمين شرطة ومعه بواب العمارة وبعض الجيران، والجميع متجهمون وتساءلت فى قلق: خيرا.

فتبادلوا جميعا النظرات كأنهم يحثون بعضهم البعض على الكلام ثم قال لى أمين الشرطة إننى مطلوب للسفر إلى المصيف؛ لأن حادثا

قد وقع للسيارة التى سافرت بها أسرتى، وهناك مصابون فى الحادث!.

ولم أستوعب ما قيل لى فى البداية.. وكررت السؤال على الأمين فأجابنى الإجابة نفسها.. وعجزت عن الكلام والتصرف والحركة، ووجدت أحد جيرانى يحثنى على الخروج، ويقول لى إنه سوف يصطحبنى معه فى سيارته..

وبصعوبة شديدة تحركت وخرجت معه.. وقلبى يخفق بشدة.. وركب معنا فى السيارة اثنان آخران من الجيران، راحا يطمئنانى ويؤكدان لى أن الإصابات ستكون بسيطة بإذن الله.. وخلال الطريق تشجع أحدهما، وقال لى وهو يذكرنى بربى وإيمانى إن والدتى قد قضت نحبها فى هذا الحادث، فانفجرت فى البكاء.

وبعد مسافة أخرى فى الطريق راح جار آخر يحدثنى عن الإيمان بالله والرضا بقضائه وقدره.. وكلما استمر فى الحديث ازداد انقباضى إلى أن صمت برهة، ثم طلب منى أن أحتسب عند الله أيضا زوجتى والطفلين! لأن سيارة نقل ضخمة قد دهمت السيارة التى كانوا يركبونها من الخلف فمات كل من كانوا فيها وأصيب شقيقى الذى كان يجلس بجوار السائق، ولم أسمع بقية كلماته.. وأفقت بعد فترة من الوقت فوجدت وجهى مبللا بالماء ورائحة الكولونيا تملأ أنفى.. والسيارة واقفة وجيرانى الثلاثة يحيطون بى والدموع فى عيونهم.

وتوالت الأحداث بعد ذلك أمامى، وأنا لا أشعر بشىء ولا أرى شيئا ولا أسمع شيئا، وتم اصطحابى إلى المستشفى لتسلم أسرتى والعودة بها إلى المدينة، وتولى جيرانى الإجراءات الكئيبة، وتنبهت فى ذهولى إلى أن شقيقى المصاب موجود فى نفس المستشفى فطلبت زيارته للاطمئنان عليه وقادونى إلى العناية المركزة فرأيته عن بعد والضمادات تحيط به، وغادرت المستشفى مع جيرانى ومعنا أفراد أسرتى الذين كانوا حتى قبل ساعات قليلة يملأون حياتى بالبهجة والسعادة، ورجعنا للمدينة.. وتمت الإجراءات الحزينة وأنا لا أشعر بنفسى ولا بما يجرى أمامى.. ووجدت زوج شقيقتى يجذبنى من يدى لأمضى الليل عنده استعداداً لإقامة العزاء مساء اليوم التالى.. وارتمت علىَّ أختى وهى تصرخ وتولول.. وقد بح صوتها وجفت دموعها، وزوجها يحاول إبعادها عنى دون جدوى..

وفى مساء اليوم التالى وقفت مع زوج شقيقتى وأقارب والدى ووالدتى أتلقى العزاء فى أسرتى كلها.. وقدماى لا تقويان على حملى..

وفى اليوم الثالث سافرت إلى المستشفى الذى نقل إليه أخى.. ووجدته مازال فى العناية المركزة.. وألقيت عليه نظرة، فنظر إلى حزينا، وقال لى فى صوت ضعيف: سامحنى!.

ولم أدر على ماذا يطلب منى أن أسامحه، وقد أراد لأسرتى الخير وأراد القدر لها شيئا آخر.

وبعد أسبوع نقل أخى إلى مستشفى قريب بالمدينة، فأصبحت زيارته وقضاء اليوم معه أو القرب منه هو سلواى الوحيدة، وكلما رآنى بكى وجذب يدى إليه؛ محاولا أن يقبلها حتى كففت عن الاقتراب منه..

وبعد شهر آخر استطاع الحركة وسافر وساقه وذراعه فى الجبس إلى مقر عمله لكيلا يفقد وظيفته.. وبعد سفره أصررت بالرغم من معارضة أختى وزوجها على العودة إلى البيت، الذى شهد حياتى بين أبى وأمى وأخوتى، ثم سعادتى بين زوجتى وطفلى وأمى.

وقد مضت الآن تسعة شهور على الحادث لا أعـرف كيف مرت ولا كيف طلع علىَّ الصباح فى كل يوم منها.. ولقد عولجت لدى طبيب نفسى اصطحبنى إليه شقيقى حين رجع بعد شهرين للاطمئنان على، ومازلت حتى الآن لا أنام بغير المهدئات والمنومات.

وبعد فترة أجازة من العمل، رجعت إليه فأحاطنى رئيسى وزملائى باهتمامهم.. ولاحظت أنا نفسى كثرة سهوى فى العمل بسبب ضعف تركيزى حتى أصبحت لا أثق فى أى عمل أقوم به.. إلا إذا راجعه بعدى أحد زملائى، وأعفانى رئيسى من موعد الانصراف تاركا لى حرية الخروج من العمل فى أى وقت أشاء، وشكرته على ذلك لكنى لم استخدم هذا التصريح أبدًا، إذ إلى أين أذهب إذا خرجت من العمل.. ولمن أعود وقد أصبح بيتى خاليا ممن كانوا يملأونه دفئا وحبا وبهجة.

إننى لم أكتب إليك لكى أشكو إليك من أقدارى.. وحاشاى أن أفعل وأنا الرجل المؤمن المصلى الصوام، ولكنى أكتب إليك لأن هناك بعض الخواطر التى تلح على وتشغل ذهنى وتشتت تركيزى، فلقد أكون منهمكا فى العمل.. فتهاجمنى هذه الخواطر وتستغرقنى كلية فلا أشعر بالوقت ولا أسمع من يخاطبنى ولا أتحرك من موقعى إلى أن تنصرف عنى.. وأولى هذه الخواطر، هل كان ما حدث عقابا لى من ربى على ذنب جنيته أو خطايا ارتكبتها؟

وهب أن الأمر كذلك فلماذا كان العقاب مشددا وقاسيا على هذا النحو؟ لقد قرأت أن بعض الطغاة كانوا إذا أرادوا معاقبة أحد بقسوة بالغة لم يقتلوه وإنما قتلوا أعزاءه وتركوه يعيش بعدهم لكى يكون عذابه مضاعفا.. بدلا من أن يحكموا عليه بالموت فيستريح، فهل كان عقابى من هذا النوع؟

وأى ذنب جنيته لكى استحق هذا العذاب المضاعف؟

لقد راجعت حياتي كلها وخطاياى وآثامى، فلم أجد فيها ما يبرر هذا العقاب القاسى.. ووجدتنى على العكس من ذلك قد نشأت فى بيت علم ودين، وتربيت على الفضائل والتزمت بفروض دينى، ولم أعرف قبل زوجتى امرأة وكنت بارا بأبى وأمى وأخوتى ولم أوذ فى حياتى أحدا، ولم أسرق ولم أرتش ولم آكل حراما.. ولم أتطلع إلى ما فى يد غيرى، فكيف أبرر لنفسى إذن هذا العقاب؟

لقد ظننت بعقلى الظنون حين رأيت مرارًا أطياف أحبائى تطوف حولى فى البيت الذى خلا منهم.. وحين خيل إلى مرارًا أننى أسمع أصواتهم وضحكاتهم، بل ودعوة طفلىّ لى لمشاركتهما لعبتهما كما كنت أفعل فى الزمن السعيد.. وشكوت حالى لطبيبى فطمأننى إلى أنها حالة مؤقتة وسوف تذهب إلى حال سبيلها.. لكنها لم تذهب.. ومازلت أرى أطياف الأحباء فى البيت الخالى، وأكاد أحدثهم ويحدثونننى.. ومازالت نوبة الخواطر تفاجئنى فى كل حين فى البيت أو الشارع أو العمل، فتغيبنى عن الواقع المحيط بى لفترة تطول أو تقصر، أستغفر الله بعدها وأستعيذ به من الشيطان الرجيم.. وأسرع إلى المسجد لأحتمى به.. أو للصلاة فى البيت أو العمل، وفيما عدا ذلك فأنا لا أكاد أخرج من البيت ولا أستجيب لدعوات أختى لزيارتها، وابتعدت عن الأصدقاء والجميع، فهل ترانى أمضى فى طريق الجنون يا سيدى.

وبماذا تنصحنى لكى أتفاداه وأتحمل أقدارى وحياتى. إن الطبيب يعيب على حزنى على الراحلين ويحذرنى من الهزال الذى أعانيه، حتى الآن حيث نقص وزنى منذ وقوع الحادث الذى غير كل حياتى ١٦ كيلو جراما، ويتهمنى بأننى أنتحر ببطء.. وأوهم نفسى أننى لا أحاول الانتحار لحرمته الدينية، وفى نفس الوقت أمتنع عن الأكل لكى أهزل وأضعف وأصل إلى غايتى دون حرمة دينية، وأنا

أقسم لك أنى لا أتعمد ذلك ولا أقصده، لكنى قد فقدت بالفعل شهيتى للطعام، وأعجز أحيانا عن ابتلاع لقمة واحدة طوال اليوم، ولولا إلحاح أختى وشقيقى والعصائر والحقن والفيتامينات لعجزت عن الحركة. فكيف أكون راغبا فى الانتحار، كما يقول الطبيب وأقبل فى الوقت نفسه على تناول العلاج والفيتامينات والعصائر؟

وكيف يتهمنى بالرغبة فى الانتحار.. وأنا لا أملك الشجاعة الكافية للإقدام عليه..

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

فى بعض الأحيان تكون الشجاعة مطلوبة بشدة للاستمرار فى الحياة وتحمل أقدارنا فيها وليس للانتحار.

فالانتحار ليس شجاعة، وإنما هو جبن وهروب ونكوص عن تحمل أقدار الحياة، وأنت يا صديقى لا تنقصك الشجاعة.. ولا تفتقد الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر خيره وشره، ولك من عمق إيمانك بربك وتسليمك بقضائه وقدره ما سوف يعينك بإذن الله على الصمود لهذا الابتلاء، الذى ابتلى بمثله من قبل أولو العزم من الأنبياء والصابرين المحتسبين.

فإذا كانت الخواطر السوداء تهاجمك من حين إلى آخر فتذهلك عمن حولك، فلأنك مازلت فى حالة الضعف النفسى من أثر هذه

الفاجعة التى تئن من وطأتها الجبال، والإنسان فى حالة ضعفه يكون نهبا لمثل هذه الأفكار السوداوية والوساوس القهرية، التى تلح عليه وتفسد عليه أمانه وسلامه.

غير أن للوسواس القهرى بالرغم من وطأته علاجًا مأمونًا لدى الطبيب النفسى.. وخير ما يعينك عليه إلى جانب العقاقير التى ينصحك بها الطبيب.. العبادة التى هى درعنا السرية ضد الآلام، والتسليم بما جرى والتعلق برحمة الله فى أن تنقذنا مما نكابده ونعانيه وتفتح أمامنا أبواب الأمل فى غد يمسح عنا كل الأحزان.. أو يطفئ على الأقل أوارها المشتعل، ويحولها إلى حزن رفيق لا يحول بيننا وبين التواصل مع الحياة والقدرة على الاستمرار..

فأما الحزن الذى يعيبه عليك طبيبك من باب الإشفاق عليك وحثك على الاهتمام بنفسك وتجاوز أحزانك، فلقد استسلم له من قبل سيدنا يعقوب حين حزن على يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن، ولم ينكره عليه ربه فإذا كان الحزن على فقد طفليك وزوجتك وأمك قد هزمك ونحل منه جسمك، فلمن يكون الحزن إذن إن لم يكن لأمثالك من المبتلين.. غير أن عافية الله أوسع لك ورحمته سوف تدركك وتخفف عنك أحزانك وتعوضك عمن فقدت بإذن الله خير الجزاء.

وأما تساؤلك عن الذنب الذى جنيته واستحققت عليه هذا العقاب

المشدد، فلم يجر ما جرى لذنب جنيته أو إثم افترقته، ولم يكن ربك حتى ولو كنت من أهل الخطايا ليأخذ الأبرياء بذنوب المذنبين، وإنما هى أقدار مقدورة ومواعيد مسجلة فى اللوح المسطور من قبل المجئ إلى الحياة، ولقد جاء فى تفسير الطبرى للآية ٣٩ من سورة الرعد: ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ أنه قيل إن الله سبحانه وتعالى يقدر أمر السنة فى ليلة القدر فيمحو ما يشاء ويثبت إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة فذلك ثابت لا يتغير.

فكيف تفتش إذن فى حياتك وماضيك عن مبررات لما كان من الأصل كتابا موقوتا وأنت الرجل المؤمن الذى لم يقترف حراما ولم يجن على أحد وعاش حياة شريفة فاضلة؟ أو لسنا نسأل الله اللطف فى القضاء.. ولا نسأله رده لأنه لا راد له حين يجئ؟.

لقد مسك الضر يا سيدى كما مس سيدنا أيوب من قبلك ومس الأنبياء والمبتلين فى كل زمان ومكان، فاهتف كما هتف أيوب «وأيوب إذ نادى ربه أنى مسَّنى الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين».

وجاء فى تفسير هاتين الآيتين فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد أجابه إلى ما كان يرجوه، فرفع عنه الضر - أى المرض - ووهبه من الأبناء بقدر من ماتوا من أبنائه وزاده مثلهم

رحمة به من فضله وتذكيرا لغيره؛ لكى يصبروا كما صبر ويطمعوا فى رحمة ربهم كما طمع.

فأصبر يا صديقى كما صبر المبتلون من قبلك، وأخرج من عزلتك وتشاغل عن أحزانك وخواطرك المقلقة وهواجسك بالتماس الصحبة والسلوى لدى الأهل الأقربين والأصدقاء، وحبذا لو استطعت أن تستبدل بمسكنك الحالى الذى تطوف بك فيه أطياف الأعزاء الراحلين آخر بعيدا عن موطن الذكريات والأحزان، فنحن نحتاج فى بعض الأحيان إلى أن نبتعد عن كل ما يؤجج لهيب أحزاننا، كلما بدا لنا أنها توشك على الخمود.

ولابد من أن تفكر جديا من الآن فى تجديد حياتك، وخلق أسباب جديدة تدعوك للتواصل مع الحياة.

ومن المحزن حقا أن تكون بعض الفواجع الإنسانية محررة للإنسان من كل خوف بعدها.. ولقد قيل لإعرابية مات ابنها ما كان أحسن عزائك فقالت: إن فقدى إياه قد آمننى كل فقد سواه، وأن مصيبتى به قد هونت على كل المصائب بعده.

فتمسك بالحياة التى لا مفر لنا من أن نحياها سعدنا فيها أم شقينا، وأعن نفسك على تجاوز المحنة بالأمل الذى لا يخيب فى رحمة ربك، وفى الغد الآتى الذى يعوضك فيه ربك بإذن الله عن كل الأحزان، والله المستعان على كل أمر عسير.

التاج الأبيض!

أنا سيدة متزوجة منذ عشرين عامًا وفى الثانية والأربعين من عمرى، وأحمل مؤهلاً فوق المتوسط، وأواصل دراستى العليا حاليا، ولى ثلاثة أبناء وبنت تدرس فى إحدى كليات القمة وأصغرهم فى الصف الثانى الإعدادى، وكلهم والحمد لله متفوقون، وفى بداية حياتى تقدم لى كثيرون، ولكننى لم أقبل بإحدهم إلى أن دق بابنا زوجى الحالى لخطبتى وتمنيت من كل قلبى أن تتم هذه الخطبة لأنه جذبنى بشخصيته حيث إنه إنسان مثقف ورزين ومحترم.

وزوجى ياسيدى خريج إحدى كليات التجارة قسم إدارة الأعمال، وكان يعمل بإحدى شركات البترول الأجنبية، فى حين أننى موظفة بإحدى الوزارات، وزوجى يحب ويعشق عمله وكثيرا ما دعاه رؤساؤه الأجانب لحفلات العمل التى تقام من خين لآخر.

وقد حضرت معه بعض الحفلات ولمست كيف يقدرونه، ونظرًا لتفانيه فى عمله فقد تم اختياره خمس سنوات متتالية ليكون الموظف المثالى فى الشركة، ومنح جوائز قيمة فى كل مرة، ورقى إلى عدة

مناصب حتى وصل إلى منصب مدير لإحدى الأدارات، ونقل إلى القاهرة، وأصبح مكتبه فى شقة فاخرة للمقابلات وعقد الصفقات، وكان أول مصرى يشغل هذا المنصب الحساس، ونال إعجاب البعض وحسد الآخرين، ولكنه وبفضل الله تعالى أثبت كفاءة عالية.

ومنذ فترة الخطبة وحتى الآن فهو دارس لنفسيتى بعمق وكأن ما يدور فى نفسى كتاب يقرأه، وقد أحببت فى زوجى ذكاءه وثقافته وضميره اليقظ، حيث كان يخاف الله فى تعاملاته، ويرفض وبكل إصرار الهدايا والعروض التى تقدم له من الشركات المتعاونة معه.

وبعد عدة سنوات انتهى عقد الشركة بمصر، وحصل على مكافأة كبيرة أودعها إحدى شركات توظيف الأموال وعمل بالتجارة وتكبد للأسف خسائر كبيرة، ولأنه يجيد اللغة الإنجليزية فقد اتجه إلى مجال التدريس والتحق بالعمل بإحدى المدارس، والمشكلة ليست فى المادة ولا فى العلاقة الخاصة بيننا فهى على أكمل وجه والحمد لله.

وإنما المشكلة يا سيدى كامنة فى التليفون! فمنذ ثلاث سنوات كانت الساعة الواحدة صباحًا حين سمعت جرس التليفون ورد زوجى وراح يتحدث بصوت هامس، وبعد ذلك أخذ التليفون وأغلق عليه إحدى الحجرات لمدة ساعة تقريبا.

وتكررت هذه الاتصالات بعد الواحدة من صباح كل يوم تقريبًا وتستمر نحو الساعة أو أكثر، ومازالت تتكرر وحتى كتابة رسالتى

هذه، وصل عدد السيدات اللاتى يتصلن به إلى خمس، منهن ثلاث سيدات وفتاتان إحداهما عمرها حوالى سبعة عشر عامًا!.

وقد عرفت عددهن من تمييز أصواتهن، وتحدثت مع إحدى الفتاتين فى عدم وجوده، وقلت لها إنه قارب الخمسين من عمره وأب لأربعة أبناء، وقد كسا شعره تاج أبيض فردت بكل بجاحة إننى معجبة به وبشعره الأبيض ووضعت السماعة.

لقد طعنت فى مشاعرى وأنوثتى، وأنا أحب زوجى بجنون وأطيعه مهما تكن أوامره، وأريد أن أحتفظ بزوجى ولا أريد إثارة المشاكل حتى لا أفقده إلى الأبد.. فماذا أفعل؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ولماذا تلومين ابنة السابعة عشرة وحدها على نزقها وبجاحتها.. ولا تلومين زوجك المحبوب الذى يلاحقها «بتاجه الأبيض» ويغريها بالاتصال به.. وإنشاء علاقة معه!.

ولماذا لا تلومينه على عدم احترامه لمشاعرك كزوجة وأنثى وشريكة حياة، وهو يتلقى الاتصالات التليفونية فى بيته فى الواحدة صباحا، ويرد عليها بصوت هامس فى حجرة مغلقة لمدة لا تقل عن الساعة.

إنه هو المطالب قبل غيره باحترام مشاعرك وعدم إثارة غيرتك بمثل هذه التصرفات الصبيانية وبالإخلاص لك، والاكتفاء بك دون غيرك

من النساء والفتيات.. إذ ليس من الرجولة أن يتبجح هو بهذه العلاقات والاتصالات تحت أنظارك، وهو آمن من كل حساب!.

ويبدو أنه كبعض الرجال فى منتصف العمر تراوده هواجس هذه المرحلة، ويريد أن يثبت لنفسه أنه مازال «الشاب» الذى كان.. أو يبدو أنه قد عجز عن إثباته ذاته فى مجال عمله الجديد بعد تاريخ مجيد فى العمل بشركات البترول.. ويريد أن يثبت ذاته فى مجال العلاقات النسائية ليعوض فشله المادى، ويشعر بأنه مازال يحقق المزيد من «الانتصارات» كما كان يفعل أيام النجاح والتألق، وكل ذلك ليس مما يليق بمن كان أبا لأربعة أبناء وتدرس كبرى بناته بالجامعة، ولا بمن كان زوجا لسيدة تحبه وتحرص عليه، حتى تكاد تغفر له كل حماقاته كما تفعلين الآن.

على أية حال فإنك تستطيعين لفت نظره إلى ضرورة الابتعاد بعبثه عن مجال البيت والأسرة، إذا كان عاجزا عن الكف عنه لكيلا يِؤثر ذلك على معنويات الابناء، ويهز مثلهم العليا ورمز الأب فى مخيلاتهم، لأن السلوك المعيب لابد من أن يفتضح أمره ذات يوم مهما تخفى به صاحبه.

كما تستطيعين أيضا بالحوار الهادئ معه أشعاره بأن مثل هذا العبث لا يليق به ولا يثبت شيئا ولا يضيف إليه أية قيمة ذاتية.. لأن أى رجل فى الوجود يستطيع إذا رغب أن يجد فتاة عابثة أو سيدة

مستهترة تشاركه عبثه، وتتبادل معه الأحاديث الهامسة بعد منتصف الليل، ذلك أن العبث سهل وميسور. . أما الصعب حقا والذى بمثله تقوّم معادن الرجال فهى الاستقامة الشخصية والترفع عن الصغائر والتعفف، واحترام الذات وحقوق الغير. .

وفى كل الأحوال. . فإن الأمر يتطلب منك أن تتعاملى معه بحكمة الأم التى تأمل دائما فى انصلاح أحوال ابنها ولا تدخر جهدا لإعانته على ذلك، وفى الوقت نفسه، فإنها لا تتخلى عنه ابدا مهما تعثرت خطواته أو أوغل لبعض الوقت فى الطريق الخاطئ. .

***



النظرات المحرومة!

أتابع قراءة بابك باهتمام.. ليس فقط لمجرد الاستفادة بتجارب الآخرين وخبرتهم، وإنما أيضا على أمل أن أقرأ فيه مشكلة مشابهة لمشكلتى.. حتى لا أضطر للكتابة، عما يحرجنى الإشارة إليه وأتكتمه عن الجميع.. لكنى لم أجد للأسف حالة مشابهة لحالتى، ولم يعد أمامى مفر من الكتابة ومعاناة الحرج، فأنا سيدة فى السابعة والعشرين من عمرى، حبانى الله سبحانه وتعالى بنعمة الجمال والذكاء، وتفوقت فى دراستى والتحقت بإحدى كليات القمة.

وتلقيت خلال دراستى الجامعية عروضا كثيرة بالزواج من زملاء يكبروننى فى السن ومن معيدين بالكلية.. ولم أستجب لأى منها.. ولاحظت خلال مرحلة الدراسة أن هناك زميلا منطويا على نفسه وقليل الأصدقاء، يلاحقنى بنظراته المحرومة الصامتة دون أن يقترب منى أو يحاول الحديث معى، وظل هذا الزميل يركز على نظراته هذه حتى بدأت أشعر بأنها تراقبنى طوال الوقت، وفى السنة النهائية تشجع زميلى وصارحنى بحبه، وقال لى إنه لن يقوى على مواصلة

الحياة بدونى، وبلا تردد وجدتنى أنجذب إليه وأشعر بأهميتى بالنسبة له. . واستشعر صدق مشاعره، وبدأ ارتباطنا فى السنة الأخيرة من دراستنا الجامعية.

وبالرغم من ظروفنا المادية الصعبة عقب التخرج فلقد تزوجنا على الفور. . ولم تؤثر بساطة الشقة التى أقمنا بها ولا صعوبة الحالة المعيشية فى البداية على إحساسنا بالسعادة واجتماع الشمل. شىء واحد فقط أثار قلقى وتساؤلاتى. . هو أن زوجى راح ومنذ الليلة الأولى لنا معا كزوجين يبيت وحيدا على الأريكة الموضوعة فى الصالة، وبعد يوم طويل نتبادل فيه الحب والاحترام والمعاملة الطيبة الرقيقة والاهتمام يعانقنى زوجى معانقة أخوية، ويتركنى لأنام ثم أستيقظ فى الصباح فأجده نائما فوق الأريكة. . ولا أدرى ما السبب. . ولا أجرؤ على سؤاله عنه ويمنعنى حيائى من معاتبته بهذا الشأن.

وبعد عدة شهور استجمعت شجاعتى وافتعلت معه مشكلة تافهة، ثم تعاتبنا بعدها فواجهته بما يحيرنى فيه، وفوجئت به يرتبك ويتضرج وجهه بالاحمرار حتى ندمت على إحراجه وأشفقت عليه. . ثم راح يعتذر لى عما أزعجنى. . ويعدنى بأن يتجنبه. وسعدت بذلك واعتبرت معاناتى قد انتهت، وبدأ زوجى بالفعل يهجر الأريكة وينام إلى جوارى، ولكن كما ينام الصغير بين أحضان أمه. . فى وداعة وبراءة وإحساس بالأمان ولا شىء آخر.

وحاولت أن أبحث فى طفولة زوجى الحبيب عن تفسير لذلك، على الرغم من أنه قد نشأ فى أسرة متماسكة مترابطة ومتحابة.. وبحذر شديد وحرص على ألا أجرح مشاعر زوجى أو كرامته، بدأت أسأل والدته أمامه عن أحواله وهو طفل صغير لعلى أجد خيطا يمكن البدء به فى طريق العلاج.. فلم أجد فيما سمعته منها أى شىء يسهم فى حل المشكلة.

فكتمت سرى عن الجميع وتعلقت بالأمل فى المستقبل، ورضيت من الحياة بالعشرة الطيبة والمعاملة الرقيقة وطوفان الحب الذى يغرقنى به زوجى، وبتعلقه الشديد بى كالطفل الذى يتعلق بأمه ولا يقوى على فراقها، وشعرت بأننى أمه بالفعل ولست زوجته بالرغم من أنه يكبرنى بثلاث سنوات.

ومضى العامان الأول والثانى من الزواج ونحن على هذه الحالة.. وألححت على زوجى فى عرض نفسه على الطبيب النفسى عسى أن يساعدنا على تجاوز المشكلة، فرفض هو فى البداية إلى أن هددته بالانفصال عنه، وذهبنا معا إلى الطبيب.. ولم يتوصل الطبيب بعد جلسات عديدة لسبب الحقيقى لمشكلة زوجى.. حتى سلمت أنا شخصيا باليأس، وبدأت أحاول التكيف مع حياتى على ماهى عليه، وفكرت كوسيلة للتشاغل عن أفكارى وأحزانى فى أن أعمل.

وعملت بإحدى الشركات فوجدت نظرات الإعجاب تلاحقنى.. ثم ظهر مدير الشركة فى الصورة وأبدى اهتماما خاصا بى، وراح يشعرنى برغبته فى الارتباط بى. ويبدى إعجابه بالقدر الكبير من الحنان الذى يستشعره فى شخصيتى.. وأزعجتنى كلمة «الحنان» هذه أكثر مما أزعجتنى محاولاته معى؛ لأننى أثق فى نفسى بالرغم من معاناتى، وتساءلت: ماذا فى شخصيتى يشعر الآخرين «بالحنان الأمومى» هذا مع أننى لم أنجب ولم أعرف الأمومة؟

ولولا نشأتى فى بيت أقيم على دعائم الإيمان والتقوى وخشية الله لضعفت واستجبت لمحاولات من حولى، فى النهاية اضطررت إلى ترك العمل بهذه الشركة، لكى أسد على الآخرين الطريق الخاطئ، وانتقلت للعمل فى شركة أخرى فلم يتغير الحال كثيرا.

والآن ياسيدى فقد مضت ست سنوات على زواجى ومازلت أعيش حياتى الزوجية «البريئة».. منذ ليلتها الأولى ومازلت أحب زوجى للغاية، وأحب حبه لى، وفى كثير من الأحيان يتعلق زوجى برقبتى ويبكى كالأطفال، ويقول لى إننى لو ابتعدت عنه أو تركته فإنه سيموت لا محالة، وأنه لا يفكر فى شيء وهو فى عمله سوى فى العودة لأحضانى الدافئة. وأنا لا أرغب فى هجره ولا فى تركه لأننى أحبه، لكنى بت أخشى على نفسى من الفتنة ولم أعد قادرة على مواصلة الاحتمال، وأريد أن أصبح أما حقيقية لطفل من لحمى

ودمى.. فهل أتركه وأطلب الطلاق مع ما سيكون لذلك من عواقب وخيمة على زوجى الحبيب؟.. أم هل أترك نفسى للتيار يجرفنى إلى ما يغضب ربى وأنا التى حرصت العمر كله على إرضائه؟ أم هل أصبر إلى نهاية العمر واسلم أمرى إلى الله؟

إننى أرغب فى الاختيار الأخير لكن كيف السبيل إليه.. وماذا تقول لى، وهل هناك حل آخر لمشكلتى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أشاركك الحرج ياسيدتى فى الحديث عن هذه المشكلة الشائكة، لكنه ليس من الحكمة أن نتجاهل بعض مشاكلنا تحرجا من حساسيتها، ولا أن ندفن رؤوسنا فى الرمال ظنا منا أن من لا نراه لا يرانا كما يتعامل البعض مع مشاكلهم. والحق أن المشكلة التى تثيرينها من أعقد المشاكل الإنسانية وأكثرها تأثيرا على الأسرة والعلاقات العائلية.. ولهذا فإنى أعتقد أنك وزوجك لم تتعاملا معها بالجدية الكافية حتى الآن، فإذا كنت ألتمس لك بعض العذر فى ذلك من حيائك وتحرجك من الإلحاح عليه بالتعامل الجاد معها، فإن زوجك لا عذر له - بالرغم من إشفاقى على ظروفه المؤلمة - فى ألا يتعامل مع مشكلته بالاهتمام الكافى، وهو الرجل الذى لا يعيبه طلب العلاج لمشكلة يعانيها، وإنما يعيبه بالتأكيد أن يتراخى فى ذلك أو يتقاعس عنه.

وعلى أيه حال فإن الأمر يتطلب أن تبدآ من جديد البداية السليمة لطلب العلاج لهذه المشكلة . . على أن تكون الخطوة الأولى على طريقه هى استشارة طبيب متخصص فى أمراض الذكورة، فإذا أثبتت الفحوص أنه ليست هناك أسباب عضوية لحالة زوجك، فإن الخطوة الثانية هى استشارة الطبيب النفسى من جديد، والصبر على طول العلاج وجلسات التحليل النفسى مهما تعددت، ذلك أن لانعدام الرغبة الحسية أو نقصها أسبابًا نفسية عديدة . . منها ما يراه عالم النفس الشهير فرويد من أن الرجل قد يفشل أحيانا فى الجمع بين مشاعر الحب ومشاعر الرغبة تجاه نفس المرأة، ومنها فى حالات أخرى القلق المزمن والاكتئاب وشعور المرء بالدونية تجاه شريكته أو شعوره بأنه غير مرغوب منها . . وفى بعض الحالات الأخرى قد يكون انعدام الرغبة تعبيرا عن العداء النفسى للشريك، أو الخوف منه، أو العجز عن حل الصراع الأوديبى حسب تعبير فرويد بين تقديس المرأة التى تمثل للرجل رمز الأم . . وبين الرغبة الحسية فيها . .

وفى كل الأحوال، فلابد من الصبر على العلاج النفسى الطويل إلى أن يؤتى ثماره المرجوة، فإذا استعصت الحالة بعد ذلك على العلاج فلا مفر من مواجهة الحقيقة فى النهاية مهما تكن مرارة العواقب، والقاعدة الشرعية هى دفع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر، والضرر الأكبر هنا هو خطر تعرضك للفتنة وانهيار مقاومتك

وسقوطك لا قدر الله فى بئر الخطيئة . . أما الضرر الأصغر فهو تكبد زوجك لألم فراقك ومعاناتك أنت آلام هذا الفراق بعض الوقت .

وآلام البتر فى بعض الأحيان تنقذ بقية الجسم من الهلاك ، ومرارة الانفصال بالنسبة لزوجك العاشق ، أهون فى النهاية من أن يكابد العذاب الأكبر إذا ضعفت مقاومتك ذات يوم وغلبك التيار على أمرك . . وقديما قال أحد الحكماء : إن من أعظم البلايا مصاحبة من لا يوافقك ولا يفارقك .

وعجز أحد طرفى العلاقة الزوجية عن تلبية احتياجات الطرف الآخر العاطفية والنفسية نوع من عدم الموافقة وضرب من العذاب المرير ، يذكرنا بعذاب فرانشيسكا وحبيبها فى الكوميديا الإيطالية للشاعر الإيطالى العظيم دانتى ، فلقد صور دانتى فى أحد منازل الجحيم فرنشيسكا العاشقة هذه وحبيبها وقد تواجها ، وكل منهما يشتهى أن يقبل الآخر فتتلاعب بهما رياح الجحيم وتقربهما من بعضهما البعض ، فإذا خيل إليهما أنهما قد أوشكا فى النهاية على أن ينالا القبلة المحرمة باعدت بينهما الرياح . ثم رجعت وقربت بينهما من جديد ، وتكرر الأمل فى الارتواء وتكرر الحرمان منه فى اللحظة الأخيرة وهكذا إلى ما لا نهاية ، ولا هما ينالان ما يشتهيان ولا هما ييأسان من الأمل المحروم أبدا .

فأية حياة هذه ياسيدتى تستطيعين احتمالها إلى نهاية العمر ، وأنت

فى أوج شبابك وجمالك ونظرات الإعجاب ونداءات الإغراء تحيط بك من كل جانب؟

وهبك استطعت الصبر على نفسك بضعة شهور أخرى، فمن يضمن لك القدرة على الصبر على مكابدة الحرمان بقية العمر.. أو القدرة على الصمود فى وجه الإغراء والغواية إلى النهاية؟ لقد شبه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه هذا الحال، معلقا على فارق السن الكبير بين الزوجين بقوله مامعناه:

ـ النار تندلع.. والماء ينقطع!

بمعنى أن نار الرغبة تندلع عند الشباب.. فلا يسعفها المشيب بإطفاء الحريق بسبب انقطاع الماء عنده. وكل ذلك مما يعرض المحروم للفتنة ويفتح أمامه أبواب الغواية.

إننى أقدر لك حبك لزوجك وإخلاصك له ومحافظتك على كرامته ومشاعره وتمسكك بقيمك الدينية والأخلاقية بالرغم من حرمانك المؤلم.. وأتفهم كذلك معاناة هذا الشاب الطيب أعانه الله على ظروفه، كما أفهم حبه لك.. وتعلقه الأوديبى الشديد بك، لكنه ليس من العدل أن تضعى نفسك بين خيارين كلاهما مر وهما الحرمان أو تنكب الطريق القويم، والانجراف إلى هاوية الخطيئة.

فابدئى على الفور العلاج بجدية وحماس من جديد لإبراء الذمة

قبل اتخاذ القرار المصيرى.. ثم اتخذى فى حالة فشل العلاج وانقطاع الأمل فيه قرارك بشأن حياتك ومستقبلك بلا تردد، مهما يكن هذا القرار مؤلما للطرفين أو قاسيا، خاصة أنك لم تنجبى حتى الآن، ولن يكون لهذا القرار من ضحايا إلا زوجك المحكوم بأقداره المحزنة للأسف.. فضلا عن أنه من حقك فى النهاية أن تمارسى الأمومة الحقيقية ذات يوم، إذا فشلت كل الجهود، ولم يعد هناك مفر من آلام الجراحة.

❑ ❑ ❑



خلاصة التجربة

أنا شاب فى الرابعة والثلاثين من عمرى، نشأت بين أب موظف وأم ربة منزل وأربعة من الاخوة، وحرص أبى على غرس المبادئ والقيم النبيلة فينا كالصدق مع النفس ومع الآخرين إلى جانب البساطة والواقعية وقوة الإرادة، ولقد بذلت والدتى قصارى جهدها فى سبيل إسعاد أبنائها، فكان عطاؤها لنا كبيرا، وكانت نعم السند والمعين لأبى خلال رحلة حياته.

وتبدأ قصتى عندما تخرجت فى الجامعة فى إحدى الكليات النظرية ثم سافرت إلى الخارج لبضع سنين، وخلال تلك الفترة اجتهد أبى وأمى فى البحث لى عن شريكة لحياتى، وخلال إحدى إجازاتى تم عقد قرانى على إحدى الفتيات، ثم سافرت وبعد عام آخر تم الزفاف وقررت الاستقرار بمصر. وخلال سنوات زواجى الأولى ذقت الأمرين فى حياتى الزوجية، وتعرضت حياتى مع زوجتى أكثر من مرة للانهيار، وكان لوالد زوجتى النصيب الأكبر فى تقويض دعائم أسرتى الصغيرة، إلا أننى تحليت بالصبر وحسن التقدير.

والآن بعد أن اجتزت تلك الفترة العصيبة من حياتى، فإننى أجد زوجتى قد هداها الله وأصبحت حريصة على بيتها وتبذل كل ما فى وسعها لإرضائى وإسعادى، ومنَّ علىَّ الله بالمال الوفير الذى أنفقه فى رعاية أسرتى الصغيرة، ومنَّ علىَّ بشقة لم أكن أحلم بها، بل وأكثر من ذلك فقد تعثر والد زوجتى - سامحه الله - كثيرا ولم يجد سواى لإخراجه من عثراته، وأجدنى بـوازع من مبادئـى وأخـلاقى لا أستطيع التخلى عمن يطلب المساعدة.

ولقرائك الأعزاء أسوق بعض نصائحى، التى استخلصتها من تجربتى المتواضعة فى محاولة إنجاح حياتى الزوجية، وهى:

- على الزوجين أن يتحليا دائما بالصبر وحسن التقدير.
- على الزوج أن يكون حريصا على ألا تخرج زوجته من منزله إذا اختلفا طالما ظلت الرابطة الزوجية قائمة، لأن ذلك يؤدى إلى احتواء الموقف وعدم تدخل الأهل، ولابد أن يدرك كلاهما أن الحياة الزوجية سر لا ينبغى البوح به لأحد، مهما تكن درجة صلته به.
- ضرورة ألا يتسرع الزوجان فى قرار الانفصال، وأن يعيدا النظر فيه مرات ومرات، لأن الخلاف بين الزوجين ليس نهاية العالم، ولأن هناك كثيراً من الخيارات يمكن أن تكون بديلا عن الطلاق.

- إن الحياة الزوجية ليس فيها زوج ناجح وزوجة فاشلة أو العكس، ولكن هناك أسرة ناجحة وأسرة فاشلة، ونجاح أى منهما هو نجاح للآخر.

- لابد أن يضحى كل من الزوجين بجهده وماله ووقته وفكره ومشاعرة وكل ما يملك، ولا يدخر جهدًا لإسعاد شريكه.

- لابد أن يعرف كل طرف ان عليه التزامات يجب الوفاء بها قبل المطالبة بحقوقه، لأن المطالبة بالحق دون أداء الواجب، أو قبل أدائه تضعف حجة المطالب وقد تؤدى إلى إسقاط حقوقه.

هذه هى خلاصة تجربتى المتواضعة فى مقاومة الفشل فى الحياة الزوجية وتحقيق النجاح.. أرجو أن يجد فيها غيرى ما يفيده.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

بالجهد المتواصل يمكن إزكاء النار من الصخر، هكذا قال الفيلسوف الألمانى نيتشه.. وهكذا ينبغى أيضا أن يؤمن كل من يرغب صادقا فى إنجاح حياته الزوجية، وتخطى الصعاب التى تهددها بالفشل والانهيار.. وخلاصة التجربة الحقيقية هى أنه لابد من الاستمرار فى هذا الجهد المتواصل طوال الحياة الزوجية وعدم التسليم باليأس من النجاح فى فترات المشاكل والعثرات وعدم الاستنامة فى الوقت نفسه إلى الظواهر الخادعة، التى تخفى النار تحت الرماد إلى أن يفاجأ بها الغافلون لهيبًا مشتعلا.

وصدق الرغبة فى نجاح الحياة الزوجية واستمرارها عامل جوهرى فى تحقيق ذلك.. والاستعداد لبذل كل الجهد الممكن لتحقيق هذه الغاية.. عامل أكثر أهمية وخطورة.. واتحاد الأهداف بين الزوجين وانعقاد نيتهما معا على تذليل الصعاب والمحافظة على كيان الأسرة كفيل دائمًا بتخطى أصعب العقبات..

ولقد ذكرتنى رسالتك بكلمة ساخرة لأحد كبار الأدباء، يقول فيها إنه إذا أرادت الزوجة أن تنال السعادة مع زوجها، فعليها أن تفهمه كل الفهم، وأن تحبه بعض الحب، أما إذا أراد الزوج أن ينال السعادة مع زوجته فعليه أن يحبها كل الحب، وأن يكف نهائيا عن محاولة فهمها!

وإذا نحينا عنصر السخرية البادية فى هذه الكلمة جانبا، فإنها تكشف لنا عن حقيقة موضوعية هى أن الحب وحده إذا لم يقترن بالفهم وحسن التقدير والتسامح والصبر والإصرار على النجاح، فإنه قد لا ينجح فى إنقاذ السفينة من الغرق.

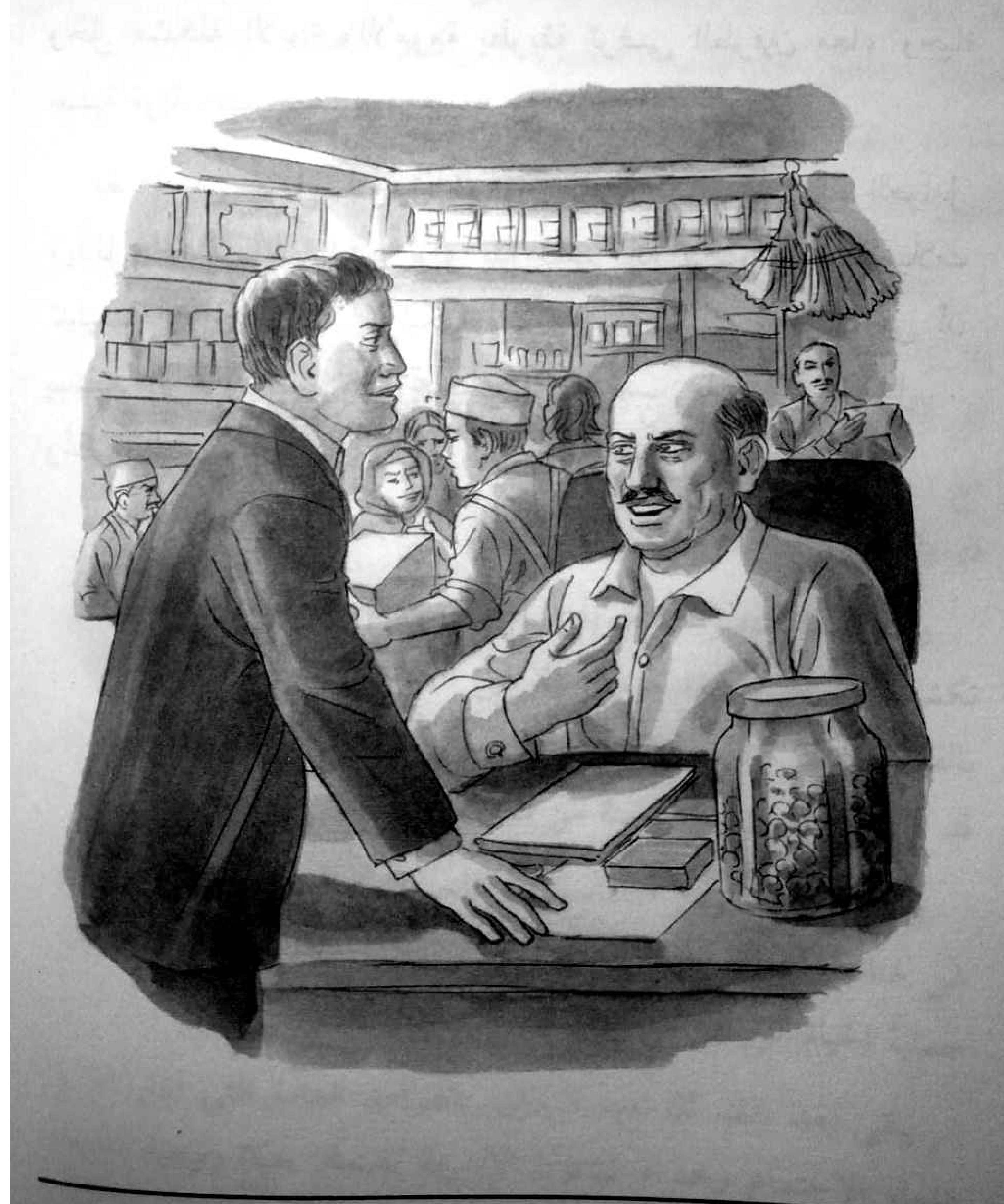
والحب دائما قرين التسامح مع المحبوب والصبر عليه والتجاوز عن هناته وأخطائه الصغيرة.. والصبر وطول الأناة من أهم أسلحة حماية الحياة الزوجية من الانهيار.

يبقى بعد ذلك أن نعيد التذكير بالقواعد العامة التى اتفق عليها علماء الاجتماع وخبراء الشئون الأسرية لضمان حياة زوجية ناجحة

وهى: حسن اختيار الشريك من البداية، وسلوك الزوجين سلوكا نفسيا معتدلا أحدهما تجاه الآخر وكل منهما تجاه الحياة بصفة عامة، وحل مشكلة الأبوة والأمومة بطريقة ترضى الطرفين معا، وحياة حسية قوية ومنسجمة.

فضلا عن عامل التوفيق الإلهى الذى يجب كل هذه العوامل ويذلل أصعب العقبات، ولو بدا للغير أنه من رابع المستحيلات تذليلها أو اجتيازها.. وشكرا لك على رسالتك ورغبتك فى أن يستفيد الآخرون بخلاصة تجربتك فى التغلب على خطر الفشل.. وتحقيق النجاح.





اختبار القوة!

أكتب إليك لأعرض عليك قصتى. . فأنا رجل أقترب من الستين من العمر، أنهيت تعليمى، ثم عملت مع أبى فى تجارته وتعلمت منه فنونها وأسرارها، وتلقيت عنه دروس تجربته، وكان من أهمها أننى ينبغى أن أكون قويا دائمًا، وألا أضعف أمام الآخرين، وإلا أكلتنى الوحوش، فالدنيا فى نظره لا تضم سوى وحوش ضارية وحملان وديعة، ولكل إنسان أن يختار الفئة التى يريد الانتماء إليها.

والحق أننى قد تعلمت الدرس جيدا. .ونلت دائما رضا أبى ومباركته لخطواتى. . وحرصت دائما على ألا أكون فى موقف الضعيف إزاء أى طرف. . كما تعلمت أيضا ألا أسمح لما تسمونه أنتم بالضعف البشرى. . أو المشاعر العاطفية بأن تؤثر على قراراتى، أو تدفعنى للتنازل عن شىء من حقى الحصول عليه بالصلابة والقوة.

وعلى هذا النحو مضت حياتى. . وتزوجت فى حياة أبى من ابنة أحد معارفه، زواجا تقليديا على أساس المستوى الاجتماعى والمادى، وعشت حياة هادئة فى مجملها مع زوجتى بعد فترة قصيرة من

الاضطراب واختبارات القوة فى البداية، إذ شهدت حياتنا فى بداية الزواج بعض المتاعب.

لكن طبيعة زوجتى التى تميل للمسالمة والرضا بالأمر الواقع قد ساعدتنا على تجاوزها.. وانتظمت حياتنا بعد ذلك وأنجبنا ثلاثة أطفال تباعا، فكرست حياتها لهم ولبيتها، وعرفت عنى أننى لا أتأثر بالدموع.. ولا استجيب لأى ضغط لكى أفعل ما لا أريد أن أفعله، سواء من جانبها أو من جانب أهلها أو حتى من جانب أبى، الذى حاولت هى فى البداية أن تستعين به على.

كما عرفت عنى أيضا أننى وإن كنت غير بخيل إلا أننى لا أحب أن أنثر النقود فى الهواء، ولا أن أضع القرش فى غير موضعه.

ورحل أبى عن الحياة ورغبت أمى وشقيقاتى البنات فى أن تستمر تجارته كما هى على أن أتولى إدارتها، وأعطى كلا منهن عائدا منتظما، حسب نصيبها فى التجارة لثقتهن فى أمانتى وكراهيتى للحرام.. وكل منطقهن فى ذلك هو أننى قد لا أكون «سخيا».. بالمعنى الشائع لكنى فى الوقت نفسه «حقانى»، وأنفر من القرش الحرام وأؤمن بأنه يجرف فى طريقه المال الحلال..

ولهذا رحن يلححن على أن تستمر التجارة كما هى، وأن أحصل على عائد منها بقدر نصيبى فيها مع عائد آخر مقابل الإدارة.. لكنى تمسكت بتصفية التركة وتوزيعها على الورثة الشرعيين كُل حسب

نصيبه فيها، لكى أبدأ أنا تجارتى الخاصة حرًا دون أى قيود، وخيرت أخواتى وأمى بين أن يعطيننى نصيبى منها ويدرن هن التجارة بواسطة أحد أزواج الشقيقات، أو يقبلن ببيع ما يمكن بيعه منها وحصول كل فرد على نصيبه.. وباءت محاولاتهن جميعا لإقناعى بالعدول عن ذلك بالفشل، وتم لى ما أردت خلال العام الأول لرحيل أبى.. وانفردت وحدى بما بقى لى من تجارة أبى، ونميته واستثمرته حتى عوضت كل ما خرج منها خلال ثلاث أو أربع سنوات على الأكثر، وتحسنت ظروفى المادية كثيرا.

وواصلت طريقى فى التجارة وفى الحياة بنفس منطقى الذى أشرت إليه وكبر الأبناء وهم ولد وبنتان وتقدموا فى مراحل التعليم، وحين التحق ابنى بالمدرسة الثانوية حاولت أن أشركه معى فى العمل لكى يتلقى عنى تجربتى ويستفيد من خبرتى، لكنى لاحظت عدم استجابته لى بالرغم من تشددى معه وإلحاحى عليه.. فكان أن حرمته من المصروف خلال الصيف. وقلت له إن من لا يعمل لا يحق له الحصول على شىء.

وتوقعت أن تنجح هذه الطريقة معه، ولكنها للأسف زادته بعدا عنى.. وتحمل صابرا الحرمان، ثم حصل على الثانوية العامة والتحق بإحدى الكليات، وسمعت فى ذلك الحين أنه يشكو لأمه وشقيقته من أن مظهره لا يليق به كطالب جامعى وابن لتاجر ميسور الحال.

ورجتنى أمه أن أبسط يدى معه بعض الشىء، لكنى وقد تعلمت ألا أضعف أمام أحد رفضت ذلك، وأصررت على أن يعمل بالتجارة مقابل ما يريد الحصول عليه من نقود إضافية.

ورفض هو ذلك أيضا فاستمر الحال على ماهو عليه، وبعد عامين أخرين نجح خلالهما فى دراسته قالت لى زوجتى إن ابنى ينكر علينا ألا تكون لنا سيارة وأنا قادر على شرائها، وأن من زملائه من هم أقل منا فى المستوى المادى، ولكنهم يعيشون أفضل منا ويركبون سيارات لا بأس بها.. ويقضون الصيف فى الإسكندرية فنهرتها عن الاستطراد فى هذا الحديث الفارغ.. وطلبت منها أن تنصح ابنها بأن يساعدنى فى العمل بدلا من التفكير فى هذه الترهات، فكانت النتيجة أن ازداد صمتًا وبعدًا بالرغم من التزامه الأدب دائما فى البيت ومع الجميع.

وتخرج أبنائى جميعا فى عامين متتاليين، وازداد عجبى حين رفض ابنى العمل معى بعد التخرج، وراح يبحث عن وظيفة عن طريق إعلانات الوظائف ويقبل بالعمل كمندوب مبيعات لإحدى الشركات مقابل العمولة.. ويحمل منتجات هذه الشركة ويطوف بها على البيوت ليعرضها للبيع.. وهذا يفتح له باب مسكنه وذاك يغلقه فى وجهه.. وتلك تنهره لأنه دق عليها الجرس فى وقت غير ملائم وهكذا.. وكل ذلك مقابل عائد لا يزيد عن ٢٠٠ جنيه فى الشهر.

وتعجبت لحاله.. وانفجرت فيه.. وكدت أفقد أعصابى معه وأعتدى عليه بالضرب وهو صامت وساكن، ولا يجيب سوى بأنه يريد أن يعتمد على نفسه وتركته لحال سبيله عسى أن يسلم بعد قليل بالفشل، ويرجع إلى طالبا العفو عنه، لكنه مضى فى طريقه بإصرار عجيب وساء مظهره بغير أن أتزحزح عن موقفى منه أو أبسط يدى معه قليلا ليشترى الملابس اللائقة، وكلما التقينا مصادفة فى البيت نظرت إليه فى غضب، فيغض بصره ويحنى رأسه ولا يتكلم ولا يطلب شيئا.

ومضى على تخرجه عام ولم يستقر بعد فى عمل لائق.. ومازال يمارس عمل مندوب المبيعات مع تحسن طفيف فى دخله، واختليت به وسألته عما يفعله بنفسه، وعن أسباب هذا العناد الذى يضر به وبنا، فإذا به يفجر مفاجأة جديدة فى وجهى، ويقول لى إنه قد اختار أن يعتمد على نفسه بعيدًا عنى لأنه مرتبط منذ عامه الجامعى الثالث بفتاة من الجيران.. وعاهدها على الزواج، ويعلم جيدا أننى لن أوافق على زواجه منها لتواضع أسرتها من الناحية المادية، وإن كانت أسرة طيبة ومشهودا لها بالتدين وحسن السمعة. وعائلها موظف حكومى ولهذا فقد رأى أن يعتمد على نفسه لكى يستطيع أن يتقدم لهذه الأسرة بما يستطيع إدخاره من عمله.. وإن كان ما يرجوه منى هو ألا أتخلى عنه من الناحية الأدبية فقط، وألا أدعه يقابل والد الفتاة وحده أو مع أمه لأنه لن يقبل به إلا فى حضور أبيه.

وصعقت لما سمعته.. وسألته عن هذه الأسرة. وأدركت أو تصورت أنه يضغط على بما يفعله بنفسه لكى أقبل بزواجه منها.. وسألت نفسى هل أضعف وأستجيب لرغبته.. أم أثبت له ولنفسى أننى لا أفشل فى أى اختبار للقوة مهما يكن شأنه.. وبعد صمت ثقيل قلت له إننى بالفعل لا أقبل بزواجه من هذه الفتاة لتواضع أسرتها، ولن أساعده ماديا فى الزواج مادام لا يتزوج زواجا أرضى عنه.. أما مسألة ذهابى معه إلى أسرتها فلسوف أفكر فيها وأبلغه بقرارى فى الوقت المناسب.

وانقطع الحديث فى هذا الموضوع بعد ذلك.. وتباعدت الأوقات التى أراه أو يرانى فيها.. وكلما التقينا رأيت فى عينيه نظره استجداء لى.. كأنما يرجونى أن أعدل عن موقفى ولكن بلا جدوى.

وانشغلت وانشغلت الأسرة كلها بعد ذلك بخطبة الابنتين، واحدة بعد الأخرى.. ثم بزواجهما وانتقالهما إلى بيتى زوجيهما خلال العام التالى. وشهدت هذه الفترة أول خلافات شديدة بينى وبين زوجتى بسبب ما سمته هى تشددى وعدم مرونتى فى المسائل المادية.. لكن الأزمة انتهت بسلام فى النهاية، واستقرت كل عروس فى بيت زوجها.

وخلا البيت على وعلى زوجتى وهذا الابن الشارد الذى لا أراه

إلا لمامًا، ولا يكاد يتبادل معى كلمة واحدة، ولا تفارق عيناه إذا رأنى نظرة الاستجداء والاسترحام.. وعلمت من زوجتى أنه قد عين فى الشركة التى بدأ فيها مندوبا للمبيعات منذ ٤ سنوات، وأصبح له مرتب ثابت إلى جانب عمولة البيع.. وفاتحتنى هى فى رغبته فى التقدم لفتاته.. ورجائه لى ألا أحرمه من ذهابى معه لطلب يدها، لأنه قد أعد كل شىء للزواج.

وتساءلت متعجبا: كيف أعد كل شىء للزواج.. وليست له شقة.. ولن يستطيع مهمًا يفعل أن يحصل عليها دون مساعدتى، فأبلغتنى أنه قد اتفق مع والد فتاته على أن يسكن فى شقة من غرفتين بالدور الأرضى من البيت الذى تقيم فيه أسرة الفتاة، وذلك بعد ترضية ساكنها ببضعة آلاف من الجنيهات ليتنازل عن عقد إيجارها.

وتساءلت مرة أخرى ومن أين له بهذه الآلاف؟! فأجابتنى بأن بعضها من مدخراته وبعضها من ثمن بيعها هى لبعض حليها الذهبية والبعض الآخر مساهمة من والد الفتاة نفسه.

وضقت بما سمعت وعاتبتها على تصرفها فى ذهبها بغير علمى.. وقررت بعد تفكير أن تكون مساهمتى فى زواجه برد ثمن هذا الذهب لأمه، وأنا أعلم عن يقين أنها سوف تعطيه لابنها فى السر، فإذا سألتنى ولماذا تفعل ذلك وأنت تعلم أنها ستعطى النقود لابنى،

أجبتك لكى أظل صامدا على موقفى الذى اتخذته منذ البداية، وهو ألا أساعده على هذا الزواج لأننى غير راض عنه.

ونفذت ما أردت واستجبت أخيرا لرجاء زوجتى والابنتين وزوجيهما لتحديد موعد لعقد قران ابنى ومشاركتى فيه.. وذهبت معهم جميعا إلى بيت أسرة الفتاة.. وابنى لاتسعه الفرحة لوجودى معهم.. وقدمنى لوالد فتاته بفخر، هز مشاعرى لأول مرة منذ سنوات طويلة.

وتم الزواج وانتقل إلى شقة الزوجية، وبدأت زوجتى من حين لآخر تحدثنى عن بساطة بيت ابننا بالمقارنة ببيتى شقيقتيه، وعن نقص بعض الأجهزة المنزلية فيه.. كأنما تنتظر منى أن أفعل شيئا.. لكنى لم أتحرك بالسرعة التى رجتها.. وكل ما فعلته هو أننى بدأت أغض الطرف عن الزيادة الطارئة فى مصروف البيت بالرغم من خلوه علينا بعد زواج الأبناء، لأننى أدركت بعقلية التاجر أنها تساعد ابنها على سداد ديون الزواج، وتحاول ترطيب جفاف حياته ببعض المأكولات والهدايا والنقود.

وكلما راودتنى نفسى على أن أتخلى عن عنادى وأبسط يدى معه، ترددت وقررت تأجيل ذلك إلى وقت لاحق.. إلى أن كنت ذات يوم فى تجارتى أتسامر مع بعض العملاء وأشرب القهوة وأدخن، فإذا بى أشعر فجأة بالعرق يتصبب من وجهى، وبضيق شديد فى التنفس ودوخة عجيبة، ثم أغيب عن الوجود وأفيق بعد ذلك لأجد نفسى

فى مستشفى قريب وحولى زوجتى وابنتاى وابنى، والدموع فى عيونهم جميعًا، خاصة هذا الابن الشريد.

وأمضيت فى المستشفى بضعة أيام، وقال لى الطبيب إنى حسن الحظ لأن الإنذار هذه المرة كان خفيفا، حيث أعانى ضيقا بسيطا فى الشرايين، والمطلوب منى أن اعتدل فى حياتى وعملى والتزم بنظام غذائى خال من الدهون والملح، مع استمرار تناول الدواء.

وسألت عن التجارة وماذا جرى فيها خلال غيابى، فعرفت أن ابنى قد حصل على إجازة من عمله وتفرغ لها.. وشهد له العاملان اللذان يعملان معى بالنباهة والأمانة والحرص على مالى فى غيابى..

وبعد فترة راحة قصيرة رجعت إلى عملى، فسلمنى ابنى كل شىء واستأذننى فى الانصراف للذهاب إلى عمله.. ومددت له يدى بمبلغ من المال تعويضا له عما خسره فى عمله خلال انقطاعه عنه، وأنا أبتسم فى وجهه ربما لأول مرة منذ سنوات طويلة.. فإذا به ينحنى على يدى الممدودة له فيقبلها.. ويترك النقود فى مكانها، ويسرع بالانصراف قبل أن أنجح فى إيقافه.

وأعترف لك بأننى ترقبت بعد ذلك أن تواصل زوجتى إلحاحها على بأن أذهب معها لزيارة ابننا، حيث لم أدخل بيته منذ زواجه، لكى تجىء استجابتى لها كالعادة نتيجة لهذا الإلحاح وليس لرغبة منى، كما أحب أن يبدو الأمر إلا أن زوجتى كفت تماما عن ذلك.. كأنما

قد أرادت بعد أزمتى الصحية ألا تثقل على بشىء، بغير أن تدرى أن هذه الأزمة نفسها قد علمتنى أشياء كثيرة.

إلى أن فاجأتها ذات يوم بأن طلبت منها أن ترتدى ملابسها لكى نزور بيت ابننا لأول مرة.. فنهضت مبتهجة واصطحبتها معى إلى المسكن القريب، وقبل أن نصل إليها اشتريت بعض الفاكهة والحلوى واللحوم والدجاج والمعلبات وتوجهنا إلى بيت ابنى فما أن رآنا على باب مسكنه حتى انفجرت الفرحة فى وجهه، وهجم على يحتضننى ويقبلنى ويقبل أمه، ويحمل عنا الأشياء، وهو يصيح فى اضطراب يافلانة.. يافلانة.. بابا وماما عندنا

فكدت أنسى حكاية القوة.. وضبط الأعصاب وعدم التأثر بالمشاعر وأنخرط فى البكاء على حريتى.. لولا أننى تماسكت فى اللحظة الأخيرة، ودخلت المسكن وجاءت زوجة ابنى الحامل مهرولة وسعادة الدنيا فى وجهها.. وأمضينا معهما وقتا، لم أشعر خلال سنوات العمر كله بمثل ما شعرت به فيه من سعادة وابتهاج وأمان.

والآن فأنا أريد بعد أن أطلت عليك إن أنهى هذه الرسالة بأن أروى لك باختصار ما جد على حياتى وحياة أسرتى خلال الشهور الماضية.

لقد عرفت كم كنت جافًا وقاسيًا مع هذا الابن.. واكتشفت أننى الوحيد الذى لم يكن يعرف عنه كم هو إنسان طيب ومتدين..

وشهم.. ومتواضع وبار بأهله ومحبوب من أسرة زوجته وأصدقائه وكل من يعرفونه.

وعرفت أيضا أننى قد قصرت فى حقه، حين تركته يلاطم الحياة وحده، ويتزوج معتمدا على ساعده فقط.. وحاولت تعويض تقصيرى معه.. فدفعت له مقدم شقة من ثلاث غرف فى عمارة جديدة سوف يتسلمها خلال ٣ أشهر.. واشتريت له كل ما كان ينقصه من أجهزة منزلية، حيث لم يكن عنده مثلا جهاز تليفزيون.. ووعدته بأن أشترى له أثاثا مماثلا لأثاث شقيقتيه بمجرد تسلمه الشقة، وكررت عليه عرضى بأن يعمل معى فى تجارتى، مقابل نسبة من الربح أو مقابل المرتب الذى يحدده هو.. لكنه اعتذر من جديد وفضل الاستمرار فى عمله بالشركة مع قبوله العمل معى فى فترة إضافية فى المساء لكى يخفف عنى العبء.. إلى جانب العمل بدلا منى كلما احتجت إلى الراحة لمدة يوم أو يومين.

وهو الآن يقضى معى ثلاث أو أربع ساعات كل مساء.. ويبدى مهارة كبيرة فى العمل.. واستمتع بالحديث معه.. وأتمنى لو طال الحديث بيننا إلى ما لا نهاية.. وقد تحسنت صحتى وصحة زوجتى كثيرا بعد هذه التطورات وبدت عليها السعادة.

وشعرت لأول مرة بدفء مشاعر ابنتى وزوجتى وابنى، وإنى لأتعجب الآن كيف حرمت نفسى من هذه المشاعر، ومن هذه

الأوقات البهيجة التى أمضيها الآن مع أفراد أسرتى ومع ابنى على وجه الخصوص طوال السنين الماضية؟ وما هذا «العمل» الذى يستحق أن يحرم الإنسان من أجله نفسه من أسرته، ومن مثل هذه المتعة البريئة معها بل، وماقيمة «النقود» هذه التى يخسر الإنسان من أجلها حب ابنه أو أبنائه أو زوجته أو أهله.

لقد تعلمت الكثير والكثير خلال الفترة الماضية، وأردت أن أشركك وأشرك قراءك معى فيما تعلمته.. ذلك أنه من بين التطورات «الغريبة»، التى طرأت على أخيرا أيضا أننى أصبحت من قراء هذا الباب، بعد أن كنت أسخر من زوجتى حين أراها تقرأه باهتمام وتدمع عيناها تعاطفا مع بعض أبطاله وأصدها حين تريد أن تروى لى بعض قصصه، فإذا بنا الآن نقرأه معا ونتبادل الحديث عن قصصه.. ولا يندر أن تدمع عينى لبعض شخصياته، كما حدث حين قرأت أخيرا قصة ذلك الأب المتوحش، الذى قتل طفلته الصغيرة بقسوته عليها.

فإذا أردت أن تعرف آخر هذه التطورات كذلك، فهو أننى قد أوصيت ابنى حين يحم القضاء وأرحل عن الحياة ويخلفنى فى تجارتى.. ألا يوزع التركة ويخرج شقيقتيه وأمه منها بعد إعطائهن حقوقهن، وإنما تستمر التجارة لمصلحة الجميع لكى يجدوا كلهم مردوداً مستمرا للدخل، بعد أن لاحظت أن شقيقاتى قد أنفقن معظم

ما حصلن عليه من ميراث أبينا، ولم يحافظن عليه لأبنائهن والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا أعرف لماذا ذكرتنى رسالتك هذه بما قاله الشاعر والأديب البرازيلى باولو كويلو من أنه: نحن جميعا نحتاج إلى الحب.. إنه جزء من الطبيعة الإنسانية كالطعام والشراب والنوم.. ولقد يرقب أحدنا ذات يوم غروب الشمس الرائع وهو وحيد تماما، فيقول لنفسه لاطعم لهذا الجمال لأنه لا أحد يشاركنى فيه!

وهكذا فإن الدرس الأهم الذى نتعلمه من تجربتك هو أن الإنسان لا يسعد «بقوته» وحدها فى مواجهة الجميع.. وإنما يسعد بحب الآخرين له وحبه لهم وبدفء مشاعر المحيطين به.. وازدياد عدد من يعتمدون عليه فى حياتهم، ويرجون له صادقين الصحة والسلامة لكى يستمر فى عطائه العاطفى والمادى لهم. «فغروب الشمس الرائع» يزداد جمالا حين نرقبه، وحولنا قلوب تخفق لنا بالحب الصادق وتخفق لهم قلوبنا بمثله.

ولقد رفض الأديب والعالم اللغوى الإنجليزى صمويل جونسون قبول تقدير أحد معاصريه وإشادته المتأخرة بعمله.. لأنه كما كتب فى رسالة مريرة له «قد تأخر حتى بت وحيدا، ولا أجد حولى من أحدثه عنه» مشيراً إلى رحيل زوجته وأهله عن الحياة.

ولا عجب فى ذلك لأن الإنسان يحتاج دائما إلى من يهمهم أمره، ويستطيع أن يتحدث إليهم بلا حرج عما يحزنه أو يسعده.. أو يفخر به أو يخجل منه، وليس هناك من هو أقدر على مثل هذه المشاركة الوجدانية من شركاء الحياة والأبناء والأعزاء المقربين.

نعم.. يحتاج الإنسان إلى القوة المعنوية لكى تعينه على الصمود لاختبارات الأيام وتحمل الصعاب والصبر على أشواك الطريق وأحزان الحياة، ولكنه لا يحتاج إليها لكى يتصلب فى مواقفه ضد الأبناء والأعزاء، ولو كانت خاطئة وقاسية، وانما يحتاج معهم إلى الفهم والعطف والتراحم أكثر من أى شىء آخر.

ونعم أيضا يحتاج الإنسان إلى المال لكى ييسر له حياته ويلبى متطلباته الأساسية، لكنه يحتاج إليه كوسيلة لبلوغ غاية.. وليس كغاية فى حد ذاته لأن الغاية المثلى التى ينبغى لكل إنسان أن يسعى إليها ويأمل فيها هى السعادة وراحة القلب والضمير، ولهذا فهو يحتاج إلى المال بقدر ما ييسر له بلوغ هذه الغاية.. فإذا تعارض سعيه إليه مع الغاية التى ينبغى للإنسان أن يكدّ من أجل بلوغها.. أو إذا أدت مغالاته فى الحرص عليه إلى تعاسة من حوله وتعاسته بدلا من إسعاده.. فكيف يستقيم لعاقل أن يضحى بالغاية حرصًا على الوسيلة؟!

لقد تعلمت ياسيدى أخيرا أن تستخدم الوسيلة الاستخدام الصحيح لها فى إسعاد ابنك وأسرتك ونفسك بالتبعية، فإذا كنت قد تأخرت كثيرا فى إدراك هذا الفارق الجوهرى بين الغاية والوسيلة،

فلقد يشفع لك أنك قد أدركته فى النهاية، ولما تضع بعد الفرصة نهائيا لتصحيح الأخطاء وإسعاد الأحباء وتعريضهم عن الحرمان السابق.

وإذا حق للإنسان أن يحزن على شىء، فعلى أنه قد أضاع سنوات ثمينة من العمر، بغير أن يبذر بذور الحب والعطف فى قلوب من حوله، وبغير أن ينهل هو من نبع مشاعرهم الطيبة تجاهه ويستمتع بحبهم له وحنوهم عليه.. ذلك ان مانسميه نحن «بالمشاعر العاطفية»، التى كنت تفخر بعدم ضعفك سابقا أمامها.. هى بالتحديد ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية.

وهى دليل الرقى الإنسانى وليست أبدًا دليل ضعف أو تخاذل كما كنت تعتقد خلال إيمانك بوهم القوة، ومن صالح الحياة دائمًا أن يكثر فيها من تترقرق عيونهم بالدمع تعاطفا مع الآخرين أو عطفا على الأبناء والأعزاء أو حزنا على ما يستحق الحزن عليه. ومن سوء المصير أن يقل عدد هؤلاء الرحماء فى الحياة، ويكثر عدد أصحاب العيون المتحجرة والقلوب القاسية والأكباد الغليظة، فإذا كنت قد اكتشفت مؤخرا ابنك الطيب بعد كل هذه السنين من التباعد والجفاء، فلأنك قد أصبحت والحمد لله من أصحاب العيون الدامعة التى كنت تنكرها علينا من قبل.

والدرس الذى يمكن استخلاصه من هذه النقطة بالذات هو أنه من المؤسف حقا أن «نجهل» أبناءنا على هذا النحو، فلا نفهم شخصياتهم

ولا نعرف لهم قدرهم وسجاياهم الحميدة إلا تأثرًا بتجربة مؤلمة تعترض طريقنا.. أو تأثرا بآراء الآخرين الإيجابية فيهم.

إذ لماذا لم نقترب نحن منهم من البداية ونشجعهم على الاقتراب منا؛ لكى نكتشف حقيقة شخصياتهم فى وقت مبكر ونقيم مواقفنا منهم على أساسها، ونتفهم رغباتهم ومشاعرهم ومطالبهم، ونعتز بهم ونرضى عن أنفسنا أن قدمنا للحياة مثل هؤلاء الأبناء الصالحين؟ وكيف يكون الغرباء «أعرف» بأبنائنا منا نحن؟!

إن بعض أسباب التباعد الإنسانى بين البشر هو أننا قد نبدد فى بعض الأحيان أوقاتا ثمينة فى الكبرياء وانتظار الخطوة الأولى من الطرف الآخر للاقتراب منا، بدلاً من أن نخطو نحن هذه الخطوة تجاهه ونقرب المسافات بيننا وبينه.

وأحسب أن هذا هو ما حدث للأسف بينك وبين ابنك هذا فى السنوات الطويلة الماضية.. وأرجو أن نستفيد جميعا من دروس تجربتك هذه؛ خاصة الآباء والأبناء منا فى التمييز بين ما يستحق أن نكد ونسعى للوصول إليه وبين ما لا يستحق منا أن نضيع العمر والأوقات الثمينة فى مطاردته أو السعى إليه، وشكرًا لك على رسالتك المفيدة.

❑ ❑ ❑

الزهرة المفقودة!

أقرأ فى بريد الجمعة بعض القصص التى تدعونا للتمسك بالأمل فى رحمة الله إلى ما لا نهاية، مهما تشتد الأحزان والآلام.. وكان من آخر ما قرأت من هذا النوع رسالة «اللحظة السحرية»، التى روت فيها سيدة فاضلة قصتها مع اليأس من الزواج والإنجاب فى البداية، ثم مع الأمل الذى تحقق لها من حيث لا تدرى ولا تحتسب.. فولدت بفضل من الله ثلاثة توائم.. لتنجب «خلفة العمر» دفعة واحدة، حيث سيتعذر عليها الإنجاب بعد ذلك لأسباب صحية.

ولقد دفعتنى هذه الرسالة لأن أروى لك قصة سيدة من قريباتى المقربات، تكبرنى بعدة سنوات وتحمل شهادة جامعية وتتمتع بجمال أخاذ، وبالرغم من جمالها فلقد تعثرت خطواتها على طريق السعادة طويلا؛ إذ تزوجت وهى فى العشرين لبضع سنوات ثم طلقت لعدم الإنجاب، ثم تزوجت من شخص آخر لسنوات أخرى، وطلقت للسبب نفسه.. ونصحها الأطباء بألا تسعى للانجاب مرة أخرى؛ لأن طريقه مسدود أمامها ولا أمل لها فيه.

وانطوت السيدة الشابة على نفسها وراحت تجتر أحزانها وآمالها الحسيرة، فساقت إليها الأقدار مهندسا يكبرها بعشرين عاما كان متزوجًا وفشل فى زواجه لعدم الإنجاب ولعدم صبر زوجته السابقة عليه، إلى أن يؤتى العلاج ثماره معه، فوجد كل منهما فى الآخر ضالته.. وتزوجا وكل منهما مقتنع فى أعماقه بألا أمل له فى الإنجاب.. لكنه لا بأس من الأخذ بالأسباب، ولو من باب شغل النفس عن أفكارها وهواجسها بزيارات للأطباء وخضوع للفحوص وإجراء للتحاليل.. إلخ.

ولأن تخصص الزوج دقيق.. فقد أتيحت له فرص عديدة للسفر إلى الخارج واصطحب زوجته دائما معه إلى هذه الرحلات، وفى كل رحلة يعرضان نفسيهما على المراكز المتخصصة فى علاج العقم ويجريان الفحوص، ويتلقيان العلاج بلا طائل.

ومضت عشر سنوات كاملة على حياتهما معا على هذا النحو.. وبعد ذلك لاح لهما ولأول مرة أمل ضعيف فى الإنجاب عن طريق الإخصاب الصناعى أو الأنابيب، وكانا فى ذلك الوقت يقيمان فى دولة أوروبية متقدمة فخاضا التجربة وفشلت..

وخاضاها مرة ثانية وفشلت أيضا.. وكرراها للمرة الثالثة فكتب لها النجاح، وبدأت بشائر الحمل تظهر على السيدة وطار الزوجان

فرحا.. وترقبا مولودهما السعيد بلهفة من ينتظره بشوق منذ عشرين عاما.. وخطرت لهما فكرة أن يكون مولد الطفل المرتقب فى الرحاب الطاهرة.. فسافرا من الدولة الأوروبية إلى الأراضى المقدسة.. وأديا العمرة.. وأقاما فى جوار الحرم الشريف ينتظران موعد الولادة إلى أن جاء ووضعت الأم مولودها، وقرت به أعين الأب والأم.. وقررا أن يرجعا للاستقرار فى مصر.. ويكفا عن التجوال والترحال ليوفرا لابنهما الحياة العائلية الهادئة، ورجعا بالفعل إلى بلدهما، وأقام الرجل مشروعا خاصا له إلى جانب عمله فى تخصصه الدقيق.

ومضت الأيام رخية هانئة إلى أن اقترب عيد ميلاد الابن الوحيد الثامن وبدأ الأبوان يستعدان للاحتفال به، وفى عزمهما أن يكون الاحتفال هذا العام أكبر من كل مرة سابقة.

وقبل الموعد المنتظر بيومين خرج الطفل الصغير يلهو بدراجته فى الشوارع المحيطة بمسكنه فإذا بسيارة مسرعة تصدم الطفل.. وتقتل الفرحة فى حياة أبويه، وتقضى على كل شىء جميل فى دنياهما.

وكان الابتلاء شديدا ياسيدى.. فاسودت جدران المسكن وانطفأت أنواره وخيم عليه الظلام والكآبة.

وتجمعنا نحن الأهل والأصحاب نواسى الزوجين ولا يجرؤ أحدنا على الحديث عن «العوض» أو «الإبدال» المذكور فى القرآن.. إذ من

أين يأتى العوض أو الإبدال، وقد كان إنجاب هذا الطفل الفقيد ثمرة جهود استمرت عشرين سنة.. وكان مولده معجزة لا تتكرر.. لهذا فقد دار حديث المواساة كله حول الأبرار الصغار، وكيف يشفعون لآبائهم وأمهاتهم عند رب العرش العظيم.. وكيف يراغم الطفل البرئ الملائكة عند باب الجنة، لا يريد أن يدخلها إلا وفى يده أبوه وأمه.. إلخ.

ثم أنسحب الجميع وتركوا الزوجين الحزينين لأحزانهما وآلامهما.. وبدأت الزوجة تشكو من الأمراض والآلام الجسدية.. واستشارت طبيبها فأخضعها لفحوص عديدة، ثم أعلنها بأنها حامل! وصرخت السيدة باكية، وظنت أن طبيبها يحاول تخفيف مأساتها عنها بأن يعلقها بأمل مستحيل فى الإنجاب، لكى ترتفع معنوياتها وتتخفف من أحزانها وصارحته بذلك، وقالت له إنه من المستحيل أن تحمل مرة أخرى، لأن حملها الأول كان معجزة، وتم عن طريق الأنابيب بعد عذاب طويل.. فأجابها الطبيب بهدوء إنه لا دخل له بما حدث فى الماضى.. ولا يسمح لنفسه بأن يعلق مريضا بأمل موهوم، حتى ولو كان ذلك بدافع التخفيف عنه، وإنما هو أمام فحوص علمية ونتائج موثوق بها تؤكد له ما يقول، وفى البداية وفى النهاية فإن إرادة الله لا يستعصى عليها شىء.

وانصرفت الزوجة ذاهلة.. وظلت على ذهولها بضعة أسابيع إلى

أن اكتمل الحمل وظهرت عليها أعراضه، وبعد شهور أخرى جاء المولود إلى الحياة مصداقا لقوله تعالى «فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما» ٨١ الكهف، وكان من عجائب صنع الله أن يكون الفارق الزمنى بين رحيل الطفل الأول ومجئ الثانى هو تسعة أشهر و ١٥ يوما على وجه التحديد.

وسرعان ما أضيئت أنوار البيت المظلم من جديد.. وتجمعنا حول الزوجين مرة أخرى فشتان كان الفارق بين تجمعنا لديهما هـذه المرة، وتجمعنا السابق فى منزلهما قبل ٩ أشهر، فقد دار الحديث هذه المرة بلا حرج عن «العوض» و «الإبدال» ورحمة الله بالمحزونين، وأكد لنا الأبوان عزمهما على مواصلة مشروع دار الأيتام، الذى كانا قد بدآه عقب وفاة ولدهما الأول شكرا وحمدا وعرفانا.. ولكيلا ينسيهما تعويض السماء لهما ما انتوياه، وهما فى غمرة الأحزان..

وباركنا عزمهما.. وأيدناهما فيه.. ورجونا لهما السعادة والأمان.. وإنى لأكتب لك اسمى هذين الزوجين ورقم هاتفهما إذا أردت التأكد من وقائع هذه القصة الغريبة، كما أكتب لك اسمى ورقم تليفونى لنفس هذا الغرض. ليس فقط لكيلا يساورك الشك فيما رويته لك.. ولكن أيضا لأن هناك فصلا آخر من فصولها قد يصعب عليك تصديقه.

ولهذا فإنى أريدك أن تتصل بهذين الزوجين وتتأكد منه.. أما هذا

الفصل الأخير فهو أن الله سبحانه وتعالى لم يكتف بتعويضهما وإبدالهما خيرا عمن فقدا.. وإنما أهدى إليهما أيضا طفلا ثانيا.. بعد تسعة أشهر أخرى من ميلاد الطفل، الذى أعاد لهما الأمل فى الحياة.. وجاء هذا الطفل الثانى أيضا بلا عمليات جراحية ولا علاج ولا إخصاب، فأصبح فى حديقتهما زهرتان جميلتان عوضا لهما عن الزهرة المفقودة.. وسبحان من إذا أراد شيئا قال له كن فيكون.. وأرجو أن تزيد هذه القصة من إيمان قرائك بأن رحمة الله قد تجئ فى أى وقت لمن يشاء حين يشاء، ومن ثقتهم بأن إرادة الله لا تقف دونها الحوائل والسدود. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

ومن ذا يساوره أى شك فى ذلك ياسيدى؟

إن قدرة الله سبحانه وتعالى لم تكن يوما موضع اختبار.. ورحمته التي وسعت كل شيء لا تضيق بمن يظنون فى غمرة اليأس والقنوط ألا مخرج لهم مما يكابدون، غير أننا مأمورون بالصبر على ما نكره.. والتعلق بالأمل دوما فى رحمة الله أن يحقق لنا ذات يوم ما نرجوه لأنفسنا ولو طال بنا الانتظار.

ولقد لاحظ بعض المفسرين أن الله سبحانه وتعالى لم يأمر رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه بالاقتداء بأسلافه من الرسل فى خلق بذاته إلا فى الصبر على ما لاقوا من شدائد وواجهوه من

محن، وأنه سبحانه وتعالى قد قرن أمره لرسوله بالصبر فى أكثر من موضع بالقرآن بأمره له أن يسبح بحمد ربه، كما فى الآية الكريمة «واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم» الطور ٤٨، وقيل فى تفسير ذلك إن التسبيح هنا يحمل معنيين جليلين، الأول هو تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أن يفعل شيئا عبثا أو أن يصدر عنه ما لا يليق بكماله وكرمه وحكمته.. فإذا ابتلى بعض عباده بما يشق عليهم احتماله فى حينه، فلحكمة يعلمها هو وإن خفيت على أفهامهم.

وأما المعنى الآخر فهو أن له سبحانه وتعالى فى كل شدة عطاء وفى كل بلية نعمة.. فكأنما نبادر بالتسبيح والحمد فى ذروة الشدة عسى أن يعجل الله لنا بالكشف عن عطائه المحجوب وراء هذا الابتلاء، على غرار ما يقال عن الألطاف الإلهية، التى يقول الواصلون إنها ذلك التدبير الألهى الذى قد يأتينا أحيانا بما نكره ليحقق لنا فيما بعد ما نحب، فيكون اختيار الله لنا حين يجئ أفضل مما اخترناه نحن لأنفسنا.. وأشمل فضلا وكرما.

ولا عجب فى ذلك إذ ألم تشهد حياة كثيرين منا مواقف معينة بكينا أمامها وأسفنا على ما فاتنا فيها، وضاقت صدورنا باحتمالها، ثم لم تلبث الأيام أن أثبتت لنا أنها لم تكن سوى مقدمة لخير عميم أراده الله لنا.. وقصرت آمالنا حتى عن التطلع إليه؟

أو لم تراودنا فى بعض مراحل العمر آمال رغبنا بشدة فى أن نحققها لأنفسنا، وشعرنا بالحسرة لعجزنا عن بلوغها، ثم مضت بنا رحلة الحياة فإذا بنا نسلم لأنفسنا بأننا لو كنا قد بلغنا تلك الآمال فى حينها، لحالت بيننا وبين ما أرادته لنا السماء، فيما بعد من خير أعم وأبقى؟

لهذا المعنى.. قال ابن عطاء الله السكندرى فى حكمته الشهيرة: لا تطالب ربك بتأخر مطلبك.. ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك. يقصد: لا تحاسب ربك عن تأخر تحقيق مطلبك منه.. وإنما حاسب نفسك أنت عن تأخر أدبك فى الطلب منه.. أى تأخرك فى الاعتماد عليه فيما تريده لنفسك وتأخرك فى النهوض إلى الطاعات؛ لكى يحقق لك آمالك وقلة صبرك على ما تريد منه.. وتعجلك له.

فعطاؤه سوف يجئ حين يجئ الأوان.

وأفضل العبادة انتظار الفرج.

وفى هذه القصة التى رويتها لنا جاء عطاء الإنجاب للزوجين اللذين تلهفا عليه طويلا بعد عشرين عاما من السعى المتصل إليه.. وبعد زيجتين فاشلتين للزوجة وأخرى مماثلة للزوج فتأمل إذن حكمة ربك فى ألا يطيل عليهما الانتظار هذه المرة، حين فقدا زهرتهما الوحيدة ويئس الجميع من كل أمل فى التعويض، فلا تمضى أسابيع على محنتهما حتى يقول لهما ربهما ﴿ **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا** ﴾

(المعارج ٦ و ٧)، فتحمل الزوجة المذهولة ويرزقهما ربهما بطفل آخر بغير علاج ولا جراحات ولا أنابيب ولا انتظار لسنوات مريرة.. لأنه قد رأى برحمته أن يعجل لهما العزاء والتعويض والإبدال.

وإذ لا تبلغ بهما أقصى آمالهما من ربهما ودعاؤهما إليه، بعد ذلك، أكثر من أن يحفظ عليهما طفلهما الذى أنعم به عليهما هذا.. يقول لهما ربهما مرة أخرى: ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** ﴾ (الحجر ٩٨) لأن عطائى بلا حدود.. وكرمى فوق ما يجنح إليه أقصى الخيال، ويهبهما طفلا ثانيا على غير توقع أو انتظار ولا عجب أيضا فى ذلك، وهو القائل جل شأنه ﴿ **وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ** ﴾ يونس ١٠٧.

فماذا يدعونا إذن إلى التشكك فى وقائع هذه القصة ياسيدى، وكل ذلك عليه هين سبحانه وتعالى.

إننى أصدق كل ما رويت لنا فيها، دون حاجة إلى الاتصال بطرفيها.. وأشكرك على إطلاعنا عليها ورغبتك الكريمة فى أن يستفيد بها الآخرون.





الجانب الآخر

عرفته منذ كان عمرى خمسة عشر عاما، وهو فى التاسعة عشرة من عمره. ونشأ بيننا حب عميق وتمسك كل منا بالآخر، ورفضت من أجله كل من تقدموا لى، إلى أن أصبح قادرا على الزواج وتقدم إلى وجمعنا عش الزوجية وسعدنا بحياتنا معا وأنجبنا بنتا وولدين، ومضت بنا رحلة العمر كما تمضى بغيرنا من الناس. . وواجهنا ما يواجهم من مشكلات الحياة. . واجتزناها معا. . وكان الحب رائدنا فى كل الظروف، حتى فى الخلافات العابرة التى لا تخلو منها حياة أى زوجين.

وكبر الأبناء وتزوجت الابنة، وكنت دائما الزوجة المحبة لزوجها والمخلصة لبيتها والقائمة بكل أعمال البيت على خير ما يرام بالرغم من أننى موظفة كما كنت ومازلت أنفق كل دخلى على أسرتى ولم أشعر ذات يوم بتقصير من جانبى تجاه زوجى، سواء من الناحية العاطفية أو العائلية.

ثم منذ خمس سنوات وجدته يتغير من ناحيتى فجأة ويبتعد عنى،

وإذا جلست إلى جواره حرص على أن يلتفت إلى الجانب الآخر لكيلا يرى وجهى.. كأنه يفعل شيئا لا يستطيع معه أن ينظر إلى أو يثبت عينيه فى عينى، كما بدأ يهملنى ويعاملنى بجفاء ويتهرب منى، ويدعنى أنام وحيدة وينام هو فى فراش آخر، وإذا اضطرته الظروف للمبيت فى فراشى لوجود ضيوف عندنا مثلا، سهر حتى أستغرق فى النوم ثم تسلل للنوم إلى جوارى.. وإذا سهرت أنا سارع هو بالنوم مبكرا وتركنى وحيدة.

وساورتنى الشكوك تجاهه وتساءلت عما يمكن أن يكون سببا لابتعاده عنى، بعد كل هذه السنين من الحب والامتزاج.. وفاتحته فى أمر إهماله لى، فكان لا يشفى غليلى بكلمة مفيدة فى كل مرة ويسرع بمغادرة البيت. وواجهته بشكوكى فى خيانته لى فأقسم بأغلظ الأيمان أنه لا يعرف امرأة سواى.

وأخيرا تكشف السر المكتوم، وجاءتنى ابنتى المتزوجة تبكى وتقول لى إن شقيقها قد صارحها بشكه فى زواج أبيه من أرملة تصغره بـ ١٦ عاما، وأنه تعرف عليها عن طريق عمله ويساعد أبناءها فى دراستهم، وأنه وشقيقه قد تحدثا إليه فى هذا الأمر فأكد لهما أنه إنما يساعد هذه السيدة فقط فى إنهاء بعض الأوراق المتعلقة بمعاشها. وصعقت لما سمعته.. وظللت أستعرض من أعرفهن من السيدات الأرامل والمطلقات؛ لكى اكتشف من منهن خاننى زوجى الحبيب معها بعد كل هذه السنين..

وتحريت كل الأماكن التى يذهب إليها زوجى إلى أن توصلت إليها فى النهاية، وقابلتها واجهتها بما عرفته فكانت فى قمة البرود وهدوء الأعصاب، وأنكرت زواجها العرفى من زوجى.

وازدادت حيرتى معه. وبدأت أستعيد كل تصرفاته وخداعه لى ومبرراته الزائفة لكثرة الخروج والتأخر خارج البيت.. وشعرت بالذل والهوان، أن يضعنى زوجى فى هذا الموقف مع هذه السيدة، وشعرت بالنار تسرى فى جسدى كلما فكرت فى علاقته بها، وأحسست بأنه رجل كبير لكنه «ناقص»، لم يرع سنه ووضعه الاجتماعى والعائلى كزوج وأب وجد، كما لم يرع أبناءه ويرغب فى أن يتعلق بأهداب الشباب الذاهب، فيرتدى ما لا يليق بسنه ومركزه من الملابس، ويتظرف أمام السيدات والبنات اللاتى فى عمر أبنائه، وسقط من نظرى وشعرت بالحزن عليه وعلى طفولته المتأخرة التى يعيشها الآن، وأتمنى أن تنتهى علاقتى به لأنى لا أستطيع الحياة معه على هذا النحو، ولن أغفر له مهما حييت «خيانته الكبرى» لى، وأصبحت أشك فى كل تصرفاته حتى ولو كانت بريئة وأفكر جديا فى هدم بيتى، الذى بنيته بدمى ومالى وسنوات عمرى، ولا أنسى خداعه لى مع سيدة تصغره بـ ١٦ عاما وليس فيها أية جاذبية، ولا هى ذات مركز أو مال.. ولا تفضلنى فى شىء إن لم أفضلها أنا من كل الوجوه.

فإذا قال أحد مبررا لنفسه الخيانة إن الرجل فى مثل هذه السن يحتاج إلى الحب والحنان والرعاية، ويبحث عنها حيث يجدها، فإنى أقول له إننى لم أقصر معه فى هذه الناحية، بل إننى عاطفية جدا.. كما أن المرأة أيضا فى هذه السن نفسها تحتاج إلى ما يحتاج إليه الرجل من الحب والحنان والرعاية، فماذا أفعل بحياتى مع هذا الزوج الخائن الذى أخلصت له طوال رحلة العمر.. ولم أخنه أبدًا؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إذا ضاعت الثقة بين الزوجين فسدت الحياة.. وتسممت النفس بالمرارة والشكوك.. وأنت محقة ياسيدتى إلى حد كبير فى صدمتك فى حبيب العمر، الذى ارتبطت به وأنت فى الخامسة عشرة من عمرك، ومحقة كذلك فى رد فعلك الغاضب عند اكتشافك لخديعته لك وزواجه العرفى من أخرى، وكلاكما فى سن الاحترام والهدوء وتطلع النفس لجنى ثمار رحلة الكفاح والعطاء.

ولا شك فى أن انتهاء معزوفة الحياة بنغمة حزينة لمما يؤلم النفس حقًا ويثير الأشجان، لكن ماذا نفعل ياسيدتى فى بعض أحوال أزمة منتصف العمر.. ورغبة البعض فى إقناع أنفسهم بأنهم مازالوا قادرين على الحب والمغامرة العاطفية؟

وماذا تفعل الأم حين تكتشف تردى ابنها فيما لا تحبه له ولا ترضاه؟

هل تقطع ما بينها وبينه وتدعه لنفسه وأقداره فيغوص أكثر وأكثر فى الرمال المتحركة، أم هى تغضب منه وتتألم له.. لكنها أبدًا لا تفقد الأمل فى استعادته ذات يوم إلى الطريق القويم، ولا تكف عن السعى إلى ذلك بكل الحيل والوسائل حتى ولو منيت جهودها المتكررة بالفشل المرة بعد المرة.

إن كل إنسان به قدر ما من النرجسية، والإعجاب بالذات، والاعتقاد الموهوم بأحقيته دون غيره من البشر فى أن ينال من الحياة أطيب الثمار فى كل المراحل!

والفضلاء من البشر وحدهم هم الذين يتحكمون فى هذا الميل الغريزى لديهم، ويردونه إلى جحوره بالتواضع وتذكر حقوق الآخرين عليهم ومراعاة الأوضاع الاجتماعية والعائلية، والترفع عن الدنايا والترخص والاستجابة للإغراءات، احتراما للنفس والغير والقيم الإنسانية، لكنه فى مواجهة بعض من يعجزون عن ذلك أو يتعرضون للضعف البشرى العابر فى بعض مراحل العمر.. فإن خبراء الشئون الأسرية فى الغرب الذى تسود فيه القيم الفردية أكثر من أى مكان آخر بالعالم.. لم يجدوا ما ينصحون به زوجة فى مثل ظروفك، سوى أن تتعامل مع نزوة زوجها المدمرة «بحكمة الأم»، وبفهمها لحقائق الحياة والضعف البشرى، وبأملها المستميت دائما فى انصلاح الأحوال.. واستعادة الابن الشارد إلى جادة الحق.

وأنت يا سيدتى فيما أستشعره من رسالتك غاضبة إلى حد الحنق من زوجك ولك كل الحق فى ذلك، لكنك غير راغبة فى قطع ما بينك وبينه أو الانسحاب النهائى من حياته.. ومادام الأمر كذلك فليس أمامك من سبيل سوى السعى الدءوب لاستعادة الطائر الشارد إلى عشه المهجور، وإقناعه بكل ما تملكين من حكمة وخبرة وفهم أنثوى بأنه لا يحتاج إلى «اختبار» جاذبيته كرجل فى أية جبهة خارجية.. مع ما يستتبع ذلك من تخبط وتعرض للمتاعب والاضطراب فى حياته الشخصية، لأنه بالفعل الفارس المشهود له، ولا يحتاج إلى شهادة خارجية أخرى.

وفى كل الأحوال فإنه إذا كان هناك من ينبغى له أن ينسحب مهزومًا مدحورا فى مثل هذه المواجهة، فهو الطرف الخارجى الذى غزا حصنك الآمن ولست أنت، إذ إنه ليس من الاحترام لسنوات العمر الطويلة التى استغرقتها قصتك مع زوجك أن يكون استسلامك سريعا أو متخاذلا على هذا النحو.

إن علماء الزيولوجيا يقولون لنا: إن الحمامة بالرغم من كل ما يشاع عن وداعتها، لا ترجع عن غريمتها التى تقتحم عليها عشها حتى تقضى عليها أو تنجح الغازية فى الفرار ناجية بحياتها.

ولست أطالبك بالقضاء على غريمتك وإنما بمنافستها فى ميدانها

واجتذاب زوجك إليك وانتزاعه منها، وسد كل المنافذ عليها فلا تقدر على تهديد عشك أو اقتحامه وترجع خاسرة مدحورة.

فأما الشكوك والهواجس والمرارات بعد ذلك فإن رصيد العمر «وحكمة الآم» فى التعامل مع شريك الحياة كفيلان مع مرور الأيام بتهدئة الخواطر وإعادة بناء الثقة، أو على الأقل الحد الأدنى منها من جديد بإذن الله.





الأرض الخصيبة!

أريد أن أعرض عليك تجربتى فى الحياة ولا أقول مشكلتى . . لأن المشكلة الإنسانية تنعدم وتزول فى إحدى حالتين، الأولى عند إيجاد حل لها . . والثانية عند التعايش السلمى أو السلبى معها؛ أى عند الرضا بها ومحاولة ترويض النفس على أنه لا مشكلة هناك فى الوضع المشكو منه . والحل الأخير يلجأ إليه نوعان من البشر: الأول هو من لا حيلة له فى المشكلة سوى التعايش معها راضيا أو راغما، والنوع الثانى وهم قلة هم هؤلاء الذين يتقبلون مشاكلهم بنفس صافية عن حق، وهم ذوو النفوس المطمئنة .

وتجربتى هذه لا أبحث لها عن حل لديك بقدر ما أريد منك أن تشاركنى برأى فيها . فأنا شاب فى الثامنة والثلاثين من عمرى تخرجت فى كلية مرموقة، وتفرض على طبيعة عملى ألا أقيم فى مكان واحد لفترة طويلة، وأن أنتقل كل عدة سنوات بين مدينة وأخرى، ولهذا فإنى أقيم إقامة دائمة فى القاهرة، وأغيب عنها فى فترة وجودى فى مقر عملى .

وقد تزوجت منذ ١١ عاما من فتاة من أسرة بسيطة وطيبة كأسرتى، وسعدت بها واعتبرت زواجى منها فوزا كبيرا نظرا لما تتمتع به من حسن الخلق والخلقة وبادلتنى هى الإحساس نفسه، وعشنا سنوات جميلة.

وكنت خلال غيابى عنها فى مقر عملى أعد الأيام على رجوعى إلى زوجتى وبيتى، وأرجع إليها فتغمرنى بشوقها وحبها وحنانها.. واستمر الحال على هذا النحو، ونحن قانعان بما أتيح لنا من رزق وبإمكاناتنا البسيطة، ولم يعكر صفو حياتنا سوى تأخر حمل زوجتى. ولكنى لم أتعجل الأمور فى البداية، وأعطينا أنفسنا فرصة أطول.

ثم بدأنا بعد مرور سنتين على الزواج نستشير الأطباء، وخضعت أنا وزوجتى للفحوص والتحاليل المعتادة فى مثل هذه الحالة، فكانت النتيجة تأتى دائما إيجابية بالنسبة لى وسلبية بالنسبة لزوجتى، حيث اتضح وجود مشاكل طبية معقدة لديها. وبدأ مسلسل الاستنزاف المادى لدى كل طبيب، نسمع عنه خيرا أو يوصى به الأهل والأصدقاء، وبدأ معه مسلسل آخر للاستنزاف العاطفى والمعنوى فى علاقتى بزوجتى.

لكنى والحمد لله صبرت وتجلدت واحتسبت كل الوقت والجهد

والمال المبذول عند ربى، ورجوت أن يكون الحرمان من الإنجاب لحكمة إلهية خافية عنا أو دليلا على صلاح الزوجين وإيمانهما، كما جاء فى سورة الكهف حين قتل العبد الصالح سيدنا الخضر عليه السلام الغلام، فقال له سيدنا موسى عليه السلام: «أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا إدّا» فكان تفسير العبد الصالح لما فعل بأمر ربه «واما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما».

وكم من الآباء والأمهات يحزنون لفراق الأبناء وكم من الأزواج والزوجات أشد حزنا لعدم الإنجاب.. ولحكمة يعلمها هو وحده سبحانه يهب الذكور لمن يشاء ويهب الإناث لمن يشاء ويجعل من يشاء عقيما.

فاتفقنا أنا وزوجتى على التسليم بقضاء الله وقدره، وعدم تكرار محاولة الإنجاب أو معاودة زيارة الأطباء مرة أخرى.. على أن نترك أمرنا لمن خلقنا يفعل به مايريد.

وواجهت خلال ذلك بالطبع التساؤلات الحائرة: ما هى الباقيات الصالحات التى هى خير من المال والبنون، الذين قال عنهم الحق سبحانه وتعالى إنهم زينة الحياة الدنيا.. وهل حرصنا على الفوز بها يجعلنا نستغنى عن الأبناء؟.. وهل إذا تزوجت مرة أخرى بغرض

الإنجاب أكون قد ظلمت زوجتى؛ خاصة أننى أشعر بأننى لن أستطيع مقاومة نداء الأبوة بداخلى إلى ما لا نهاية، ولست أتصور نفسى وحيداً فى شيخوختى.

وعلى الجانب الآخر كل لسان حال أمى واخوتى يقول لى بغير كلام: تزوج، وإن كانوا لم يتدخلوا فى حياتنا الخاصة أبدا، وكانوا لى ولزوجتى نعم الأهل والناصحين.

غير أننى وبعد سبع سنوات من الزواج ومع يأسى المتكرر من حمل زوجتى، بدأ يعترينى إحساس لم أبح به لأحد من قبل، وهو إحساس الفلاح أو المزارع الذى يبذر البذور فى الأرض ويرويها ويرعاها أملا فى إنباتها.. ثم لا تنبت الأرض شيئا مما بذره فيها فيعاود البذر مرة ومرات، لكن الأرض بور لا تنبت زرعا فيكره الأرض ويكره البذر، ووجدت نفسى بغير وعى أمتنع عن الفلاحة وأتجنب الأرض، ومكثت على هذا الحال ثلاثة أشهر متتالية بغير أية رغبة فى معاودة الفلاحة وبذر البذور، إلى أن شعرت بأن زوجتى تتأذى من ذلك دون أن تتكلم، فحاولت من جديد مصالحة الأرض الطيبة وإعادة فلاحتها وريها دون انتظار للزرع، فإذا بى لا أجد فى نفسى القدرة على ذلك، وإذا بالفأس ترفض أن تطأ الأرض!

وكررت المحاولة مرارا وتكراراً دون نتيجة، فتبدل الحال وأصبحت

أنا الذى أتلمس لنفسى العلاج خفية، بعد أن كنت أبحث عنه لزوجتى عرضت نفسى على الأطباء المتخصصين فلم يجدوا سببا عضويا لذلك، وأكدوا لى أننى سليم مائة بالمائة، وعرضت نفسى على طبيب نفسى وفشل علاجه معى أيضا.

وانزعجت لذلك بشدة واضطربت حياتى الزوجية فترة ليست قصيرة، وفقدت ثقتى فى نفسى كرجل وأحسست بأننى أخسر كل شيء.. ثم تمالكت نفسى بعد ذلك، وبمبدأ التعايش السلمى مع المشكلة، حاولت احتواء الظروف الجديدة وفهمها، وبمبدأ أن الإنسان طبيب نفسه فسرت ماحدث لى بأنه المردود النفسى المعاكس لحالة عدم الإنجاب، أو لحالة اليأس من أن تصبح الأرض البور أرضا خصيبة ذات يوم، وآمنت بأنه لو شاء الله وحملت زوجتى لعدت لسابق عهدى معها وأفضل دون علاج ولا عقاقير.

ومع مرور الوقت على هذا التعايش السلمى مع المشكلة، استعدت بعض الثقة المفقودة بالنفس فى تعاملى مع زوجتى وتحسنت حالتى بعض الشيء دون أن أرجع إلى كامل طبيعتى السابقة. لكن الشيء الذى آلمنى كثيرا واستنكرته بشدة وأنا أواجه هذه المحنة هو أن زوجتى لم تتحملنى، ولم تصبر على خلال رحلة علاجى لدى الأطباء أو فترة علاجى لنفسى بنفسى، وباحت لأمها بمشكلتى مما أثر

فى كثيرا وأحرجنى أكثر وهز من كبريائى وكرامتى، وأنا الذى كنت ومازلت الحافظ الأمين لسر مرضها وسر عدم إنجابها عن الجميع.

وهنا تزداد صعوبة الأمر وتعقيده، وهو أن الزواج مرة أخرى بالنسبة لى ستكون نتيجته أحد أمرين: إما أن تحل عقدتى المستحدثة أو مشكلة ضعفى مع الزوجة الجديدة باعتبارها مسألة نفسية بحتة إلى جانب أن أرزق بأبناء، وإما أن يستمر هذا الضعف مع الزوجة الجديدة ويهدد بفشل الزواج منذ بدايته فما هو الصواب فى رأيك.. إننى أرجو أن تشاركنى التفكير وإعادة ترتيب أفكارى والإجابة على أسئلتى.. وشكرا لك مقدما.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

اقتربت إلى حد كبير من فهم أسباب ما طرأ عليك من تغيير عارض بإذن الله فى علاقتك بزوجتك. فلقد أجريت ما يسميه علماء النفس بعملية الاستبصار الذاتى للمشكلة.. وفيها يكون الإنسان هو الطبيب النفسى لنفسه.. فيطيل التفكير فى المشكلة التى تواجهه.. ويحاول تحليل أسبابها وفهم أبعادها.. ثم يبدأ مواجهتها بحلول ذاتية نابعة من الفهم الصحيح لها، وهكذا فلقد فسرت زهدك المفاجئ فى زوجتك بعد سبع سنوات من الزواج بتأثير الإحباط، الذى شعرت به وتمكن منك لعجز أرض زوجتك عن إنبات ما بذرته فيها من بذور.

لكنك وقد فهمت أهم أسباب المشكلة، لم تحاول علاجها للأسف بحل نابع من هذا الفهم الصحيح لأسبابها وشغلت عنه بالبحث عن علاج عضوى أو نفسى لدى الأطباء، ولو أنك أمعنت التفكير فى أسباب المشكلة لعرفت أن زهد الزارع فى معاودة بذر بذوره فى الأرض غير الخصيبة إنما يرجع أساسًا إلى فهمه «لوظيفة» هذه الأرض.. وهى أن تتلقى البذور وتحتويها فى باطنها ثم تنبتها نباتا صالحا بالخدمة والرعاية. فى حين أن زوجتك ليست مجرد «مشتل» لإنبات البذور.. وإنما هى كائن بشرى مكتمل الجوانب الحسية والنفسية والعاطفية، ولا يجوز التعامل معه كمجرد «رحم» لابد أن تؤدى وظيفتها الأساسية.. فإن عاقتها عن تأديتها بعض العواقب زهدنا فيها وأنكرناها!

ولقد كان الحل الصحيح لمشكلتك الطارئة هو ألا تتعامل مع علاقتك بزوجتك على أنها مجرد «حصة فلاحة»، إن تكرر فشلها انصرفنا عنها ونتجاهل جانب التواصل العاطفى فى هذه العلاقة.. وتحرم نفسك من متعتها المشروعة والمرغوبة لذاتها وليس فقط لمحاولة استنبات أرضها نباتا حسنا.

ولو أنك كنت قد أقنعت نفسك بذلك فى الوقت المناسب وكففت عن الربط «الوظيفى» بين العلاقة الزوجية والأمل المحموم فى الإنجاب، وسلمت بقضاء الله وقدره وتركت أمركما لخالقكما يدبره

كيف يشاء كما قلت فى رسالتك، لما أصابتك خيبة الأمل فى كل مرة تبتلع فيها الأرض البذور ولاتنبتها.. ولما سيطر عليك شعور الإحباط والضيق بهذه الأرض ففقدت حماسك لها وإقبالك عليها.

وتفسيرى لذلك هو أنك لم تتقبل عن رضا حقيقى فى أعماقك الحرمان من الإنجاب ولم تسلم فيه بقضاء ربك، وإنما ظل الصراع قائما فى أعماقك بين الرغبة فى الأبوة والعجز عنها.. فكان ما سميته أنت فى رسالتك «بالمردود النفسى المعاكس لعدم الإنجاب».

وأحد أهم أسباب الشقاء الإنسانى هو تطلع النفس لما لا تناله أبدا ولا تسلم باليأس منه حتى النهاية.

والزهد الحقيقى ـ كما يقول لنا القطب الصوفى الإمام الجنيد ـ هو خلو القلب مما خلت منه اليد. وأنت ياصديقى لم يخل قلبك مما تتطلع إليه بالرغم من قبولك الظاهرى به.. ومن هنا كان الصراع النفسى بين ما تهفو إليه نفسك وما تحرمك الظروف منه.. وكان الأثر السلبى لهذا الصراع على علاقتك بزوجتك وعلى بعض قدراتك.

ولست ألومك على تطلعك المحروم للإنجاب؛ لأنه أمل مشروع لك ولكل إنسان أو إنسانة، لا مراء فى ذلك، لكنى أشرح لك فقط أسباب الإحباط الذى تشعر به حين لا تنبت الأرض نباتها.. وأقول

لك أيضا إن ما تشكو منه الآن من ضعف نسبى، إنما هو من أثر هذا الإحباط والسخط الكامن فى النفس على أقدارها فى الحياة..

ولعلك لو كنت قد اخترت استمرار الحياة مع زوجتك عن قبول صادق باقدارك معها، لما ترك الإحباط هذا الأثر السلبى على علاقتك بها.. ولربما فاجأتك الأقدار دون انتظار بهدية من هدايا السماء للصابرين المحتسبين ذات يوم ليس ببعيد.

وإذا كان عدم الإنجاب قد ترك عليك هذا الأثر السلبى.. فإن انعكاسات التجارب الإنسانية على الأشخاص قد تختلف من إنسان إلى آخر.. ولرب أشخاص آخرين ينعكس عليهم أثر مثل هذه التجربة على نحو مختلف، فيزدادون إقبالاً على زوجاتهم وارتباطا بهن.. واهتماما بالعلاقة العاطفية معهن، لأن الحب وحده يكون هو المبرر الوحيد لاستمرار مثل هذه الحياة الزوجية إلى جانب حسن المعاشرة.. والرغبة الصادقة من كل طرف فى أن يحيا إلى جوار الطرف الآخر، دون ضغوط أو دوافع قهرية كدوافع الحرص على استقرار الأبناء.

ولأنك كما تقول لا تطلب حلا لمشكلتك من أحد، وإنما ترغب فقط فى مشاركتك بالرأى فيها، ومساعدتك على إعادة ترتيب أفكارك.. فلعلى أقول لك إن تفكيرك فى الزواج مرة أخرى قد يحقق بالفعل إحدى النتيجتين اللتين أشرت إليهما، لكن إقدامك عليه

يرتبط أساسا باختيارك لحياتك، وهل تفضل الاستقرار مع زوجتك الحالية مع الحرمان من الإنجاب، حتى ولو كنت قد عتبت عليها تسرعها فى البوح بسرك لأمها.. أم تفضل السعى إلى تحقيق الأمل المحروم وخوض المجهول ومواجهة تبعاته، وقد تكون كأى تجربة إنسانية محبطة أو مبشرة.

وفى كل الأحوال فإن هذا الاختيار يرتبط أساسا بموقف زوجتك منه، وهل تقبل بزواجك من أخرى مع استمرار حياتها معك أم تفضل ـ وهو الأغلب الأعم ـ أن تسرحها بإحسان وتبحث أنت عن سعادتك بعيدًا عنها.. فواجه نفسك بما تريد.. وبما تظن أنك قادر على تحمل تبعاته بشجاعة، ولئن رضيت بما اختاره الله لك، فلقد أعفيت نفسك من أن تضعها موضع الاختبار مع من لا يربطها بك من روابط الحب والعشرة والوفاء، بعض ما يحملها على القبول بأى نقص فيك.

وشكرا لك فى النهاية على رسالتك هذه التى أطلعتنا على جانب خفى من جوانب التجربة الإنسانية، اعترف لك أننى اطلع عليه بالرغم من خبرة السنين لأول مرة.

❑ ❑ ❑

البقرة الحلوب

أنا شاب أعمل حاليا فى دولة عربية، وقد تزوجت من فتاة طيبة وعلى خلق، وتم الاتفاق بينى وبين أسرتها قبل الزواج على مسئولية كل طرف فى الزواج من أثاث وغيره، ثم حصلت على فرصة عمل بالخارج قبل الزواج وسافرت إلى مقر عملى، وبعد عامين من الغربة رغبت فى إتمام الزفاف، ففوجئت بأسرة خطيبتى ترفض الوفاء بالتزاماتها معى فى الأثاث، وتتخلى عن كل ما اتفقنا عليه، بحجة أننى أعمل فى الخارج ولم أعد فى حاجة لمساهمة الأسرة فى الزواج.

وكدت أفسخ الخطبة حينذاك، لكن رغبتى فى فتاتى دفعتنى لاستكمال المشوار، فأعددت العدة للزواج وتحملت كل التكاليف، وقمت بإعداد بيت الزوجية تدريجيا دون أن تتحمل أسرة فتاتى مليما واحدا فى زواج ابنتها، وتزوجنا وسافرت زوجتى معى إلى مقر عملى، ورأت على الطبيعة قسوة الغربة ومشقة العمل، حتى قالت لى إنها لم تكن تتخيل أن ما أكسبه من دخل يجنى بكل هذه المشقة والعناء.

وعشنا حياتنا فى سلام إلى أن أردت أن أدعو أبى وأمى لأداء العمرة، وهما اللذان لم يطلبا منى شيئا منذ زواجى، فرفضا ذلك فى البداية لكيلا يكلفانى من أمرى رهقا، خاصة وأننى كنت قد خرجت لتوى من أعباء الزواج، وبعد عامين من الإلحاح عليهما قبلا دعوتى وجاءا لأداء العمرة والزيارة.

ومنذ أن علمت أسرة زوجتى بذلك اشتعلت الحرب بين زوجتى وأهلها.. ومع كل مكالمة معهم تأتى زوجتى باكية وهى تكتم أسباب حزنها، حتى خشيت عليها فى بعض الأوقات من أن أتركها وحدها مع الأطفال.. وقررت أن نعود إلى بلدنا فى إجازة.

وليس المجال هنا مناسبا لأشكو لك مما تفعله أسرة زوجتى، خلال فترة الإجازة القصيرة التى نقضيها كل سنة فى مصر، وهى شهر واحد فقط.. حيث لابد من أن تأتى الأسرة بأكملها من المحافظة التى تقيم فيها لتقيم معنا أسبوعا على الأقل من هذا الشهر تتقيد خلاله حريتى.. وحركتى، ولا أجد الفرصة للخروج مع زوجتى والأطفال وحدنا، وبعد انتهاء الفترة وعودة الأسرة سالمة إلى بيتها تترك وراءها أحد أفرادها ليلازمنا بقية الإجازة، دون مراعاة لخصوصيتنا وحاجتنا للانفراد بأنفسنا!

المهم هو أن زوجتى نتيجة للضغط عليها من أهلها، بدأت تطالبنى بإرسال مبالغ من المال من حين لآخر لأسرتها، بدعوى أن ظروفها

صعبة ومصاريفها كثيرة، وأنها لابد أن تكون بارة بأهلها.. مع العلم بأن كل أفراد الأسرة يعملون فى وظائف محترمة، وليس لديهم سوى ابن واحد فى مرحلة التعليم، ينفقون على دروسه الخصوصية أكثر مما تسمح به ظروفهم. فأرفض أحيانا وأقبل أحيانا، وإذا رفضت لعدم اقتناعى بحاجة الأسرة إلى المساعدة من جانبى تحزن زوجتى وتتألم ويتغير حالها.

وقد فشلت فى إقناعها بأنها ليست مسئولة ماديا عن أسرتها؛ لأنها لا تعمل ولا تملك إيرادا خاصا يتيح لها مساعدتها.. وحاولت مرارا إقناعها بأننا أحق بما نرسله من حين لآخر لأسرتها، لأننا لم نكمل بعد تأثيث مسكننا فى مصر، ولدينا أطفال يحتاجون إلى نفقات كثيرة.. وأهلها على الناحية الأخرى يجددون أثاث منزلهم وأجهزتهم من حين لآخر.. ويعيدون طلاء بيتهم وعندهم من الأثاث ماليس عندنا، وبالرغم من كل ذلك تصر زوجتى على موقفها.

ياسيدى إننى لا أرفض مساعدة أسرة زوجتى إذا كانت تستحق المساعدة.. وقد حدث أن مرض والدها وطلبت منى زوجتى مبلغا لإرساله لأهلها كمساعدة فى العلاج، فأعطيت لها أكثر مما طلبت.. ثم عادت وطلبت ذلك مرة ثانية وثالثة، فدفعت على مضض، وقلت لها إننى مستعد لأن أدفع لهم ما يريدون، ولكن بشرط اعتباره دينا يرد إلى عند الميسرة، فرفضت زوجتى هذا المبدأ رفضا قاطعا بدعوى أنه لابد أن تشارك أسرتها فى همومها!

وزوجتى طيبة جدا إلى الحد الذى يدفعها لأن تعطى ما معها من نقود لأهلها، حتى ولو كانت تحتاج إلى أن تشترى به لنفسها ملابس ضرورية، وأهلها لا يرفضون ما تقدمه لهم.. وأنا سعيد مع زوجتى، لكن هذه المشكلة تنغص على حياتى معها، وتشعرنى بالتوتر والقلق على مستقبل أطفالى وعلى زوجتى.

وسؤالى اليك هو: هل يعنى برّ زوجتى بأهلها أن تكرهنى نفسيا ومعنويا على إرسال نقود لأهلها؟

لقد مررت بظروف صعبة للغاية فى الغربة، ومرت بها أسر زميلة لنا، رأيناها تمد أيديها هنا وهناك.. تقترض لكى تدبر أمورها.. ونحن والحمد لله لم نمد أيدينا لأحد لمواجهة هذه الظروف.. أفلا يدفع ذلك زوجتى إلى أن تفكر فى مستقبلنا ومستقبل أطفالنا فى مثل هذه الظروف الصعبة؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

الحق أننى لا ألوم زوجتك على استجابتها لضغط أسرتها عليها لإرسال المساعدات المالية لها، بقدر ما ألوم هذه الأسرة نفسها على الحاحها عليها بذلك بلا حياء ولا تعفف، وهى التى تعلم جيدا أن ما ترسله إليهم ابنتهم ليس من ناتج عملها، وإنما من كد رجل «غريب» عنها، وأنه ليس لها حق فى ماله ولو كان موسرا، وليس فرضا عليه

أن يساعدها ولو كانت بها خصاصة، إذا لم ينهض هو إلى ذلك من تلقاء نفسه وبدافع من شهامته وبره بذوى زوجته.

فالرجل مسئول عن إعالة زوجته وأبنائه وحدهم.. وليس عن إعالة أسرة الزوجة أو عن إكمال متطلبات حياتها، وما يعطيه لمثل هذه الأسرة عن طريق زوجته ليس سوى عطاء اختيارى، ينبغى أن يخرج من يده إليهم دون إكراه أو ضغط نفسى عليه بزوجته أو بتغير تعاملها معه، ولعلى لا أتجاوز الحدود حين أقول: إن ما يدفعه الزوج فى مثل هذه الحالة عن غير رضا منه فى أعماقه، وتتقبله الأسرة وهى على يقين من أنه قد دفعه مضطرا أو كارها أو تجنبا للنزاع مع زوجته، إنما يدخل فى دائرة الحرام، الذى أشار إليه رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، حين قال ما معناه: «ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام».

بمعنى أن ما يدفعه المرء استحياء من الرفض، ويعلم متلقيه علم اليقين أنه لولا حياء المعطى من الطالب لما أعطاه ما طلبه.. إنما يدخل فى دائرة الحرام؛ لأن طالبه قد استغل حياء المعطى منه.. وأكرهه معنويـًّا على تقديم هذا العطاء له.

فكيف يكون الحال إذن، وهذه الأسرة تعلم علم اليقين بما تعانيه زوجتك من حرج معك لكى تستجيب لمطالبها منك؟

وأين الحياء وأين التعفف عن إحراج مثل هذه الزوجة الشابة مع

زوجها بمطالبها منها، والأسرة تعرف بالطبع أنها لا تعمل ولا تتكسب، وأن ما تعطيه لها هو من كد زوجها وعرقه فى الغربة؟

إن المشكلة هى أن هناك قلة من الأسر، تتعامل مع بناتها المتزوجات من مغتربين على أنهن مصادر إضافية للدخل بالنسبة اليها.. وتتوهم أن كل من يعمل بالخارج إنما يغرف من نبع لا يغيض ماؤه، ولهذا فلا بأس بأن تنعم ببعض قطرات من فيضان هذا النبع، مع أن الجميع يعرفون جيدا أن العمل فى الغربة لم يعد موردا خصبا للرزق الموفور كما كان منذ ثلاثين عاما أو أكثر.. وأن ظروفه تتجه من سيئ إلى أسوأ بالنسبة للمغتربين فى كثير من الأحيان، ناهيك عما يدفعه هؤلاء المغتربون من ضريبة قاسية من غربتهم وعنائهم، مقابل ما يحصلون عليه بكدهم وعرقهم، فكيف تترخص أسرة زوجتك فى التطلع لجنى بعض ثمار عملك وغربتك على هذا النحو المهين؟

وأين إعزازها لابنتها وتكريمها لها وإعلاؤها لقدرها فى عينى زوجها من هذا السلوك الرخيص؟

إن كل إنسان أحق بما جنت يداه، وزوجتك بالرغم من عاطفتها الطيبة تجاه أسرتها وبرها بها مما يحمد لها من ناحية المبدأ، ليست مسئولة لا ماديا ولا معنويا عن تلبية مطالب أسرتها المادية، أو عن إعانتها على أمرها بمال زوجها، إذا لم يرغب هو فى ذلك أو لم يقتنع

بأحقية هذه الأسرة بمساعدته لها، فإذا كانت أسرتها تستحق المساعدة بالفعل فإنك تستطيع أن تعطيها من زكاة مالك ما يعينها على أمرها عملا بالقاعدة الشرعية المعروفة «الأقربون أولى بالمعروف» أما إذا لم يكونوا من مستحقى الزكاة والمساعدة فلا شيء عليك إن أنت قبضت عنها يدك.

ولاشيء على زوجتك كذلك إن هى رفضت هذا الضغط المعنوى الكريه عليها من جانب أسرتها، لكى تستنزف زوجها فى مطالب مادية غير ضرورية ولا أساسية. بل إن من واجبها بالفعل أن تستنكر مثل هذا السلوك الشائن من جانب أسرتها، وأن ترجو أهلها أن يترفقوا بها ويعفوها من مثل هذا الحرج السخيف مع زوجها، إن كانوا حقا يهتمون بأمرها ويحرصون على سعادتها واستقرار حياتها الزوجية.

فإذا كانت البقرة الحلوب تحتاج إلى حلب ألبانها بانتظام، وإلا تسممت بما يحويه ضرعها وهلكت.. فإن إنهاك هذه البقرة كذلك بالحلب المستمر بلا حساب قد يؤدى إلى الإضرار بها.. وجفاف ضرعها.

❑ ❑ ❑



اللحظة السحرية!

كنت قد انتويت أن أكتب لك منذ زمن بعيد، لكن ظروفى حالت دون ذلك والآن فإنى أشعر بأنه قد آن الأوان لكى أطلعك أنت وقراء هذا الباب على تجربتى مع الحياة. فأنا سيدة فى الثامنة والثلاثين من العمر نشأت فى أسرة ميسورة الحال، عشت فى كنفها حياة هادئة إلى أن تخرجت فى الجامعة.. وعقب التخرج التحقت بعمل ممتاز يدر على دخلا كبيرا.. وأحببت عملى كثيرا وأعطيته كل اهتمامى، وتقدمت فيه سريعا حتى تخطيت كثيرين من زملائى.

وكنت خلال مرحلة الجامعة قد ارتديت الحِجاب بإرادتى واختيارى، وبدأ الخطاب يتقدمون إلى، لكننى لم أجد فى أحدهم ما يدفعنى للارتباط به، ثم جرفنى العمل والانشغال به عن كل شىء آخر حتى بلغت سن الرابعة والثلاثين، وبدأت أعانى النظرات المتسائلة عن سبب عدم زواجى حتى هذه السن. وتقدم لى شاب من معارفنا يكبرنى بعامين.. وكان قد أقام عقب تخرجه عدة مشروعات صغيرة باءت كلها بالفشل.. ولم يحقق أى نجاح مادى، وكان

بالنسبة لى محدود الدخل، لكنى تجاوزت عن هذه النقطة ورضيت به وقررت أننى بدخلى الخاص، سوف أعوض كل ما يعجز هو بإمكاناته المحدودة عنه.. وستكون لنا حياة ميسورة بإذن الله.

وقد ساعدنى على اتخاذ هذا القرار أننى كنت قد بدأت أحبه.. وأنه قد أيقظ مارد الحب النائم فى أعماقى، والذى شغلت عنه طيلة السنوات الماضية بطموحى فى العمل، كما أنه كان من هؤلاء البشر الذين يجيدون حلو الكلام، وقد روى بكلامه العذب ظمأ حياتى. وبدأنا نعد لعقد القران وطلب منى خطيبى صورة من بطاقتى الشخصية ليستعين بها فى ترتيب القران.. ولم أفهم فى ذلك الوقت مدى حاجته لهذه الصورة لكنى أعطيتها له.

وفى اليوم التالى فوجئت بوالدته تتصل بى تليفونيا، وتطلب منى بلهجة مقتضبة مقابلتها على الفور.. وتوجست خيفة من لهجتها المتجهمة، وأسرعت إلى مقابلتها؛ فإذا بها تخرج لى صورة بطاقتى الشخصية وتسألنى هل تاريخ ميلادى المدون بها صحيح؟ وأجبتها بالإيجاب وأنا أزداد توجسا وقلقا، ففوجئت بها تقول لى: إذن فإن عمرك يقترب الآن من الأربعين.

وابتلعت ريقى بصعوبة ثم قلت لها بصوت خفيض إن عمرى ٣٤ عاما.

فقالت إن الأمر لا يختلف كثيرا لأن الفتاة بعد سن الثلاثين تقل

خصوبتها كثيرا، وهى تريد أن ترى أحفادا لها من ابنها.. لا أن تراه يطوف بزوجته على الأطباء جريا وراء الأمل المستحيل فى الإنجاب منها.

ولم أجد ما أقوله لها لكنى شعرت بغصة شديدة فى حلقى.. وانتهت المقابلة وعدت إلى بيتى مكتئبة.. ومنذ تلك اللحظة لم تهدأ والدة خطيبى، حتى تم فسخ الخطبة بينى وبينه، وأصابنى ذلك بصدمة شديدة؛ لأننى كنت قد أحببت خطيبى وتعلقت بأمل السعادة معه.. لكنه لم ينقطع عنى بالرغم من فسخ الخطبة، وراح يعدنى بأنه سيبذل كل جهده لإقناع والدته بالموافقة على زواجنا.. واستمر يتصل بى لمدة عام كامل دون أى جديد.. ووجدت أننى فى حاجة إلى وقفة مع النفس ومراجعة الموقف كله.. وانتهيت من ذلك إلى قرار ألا أمتهن نفسى أكثر من ذلك، وأن أقطع هذه العلاقة نهائيا.. وفعلت ذلك ورفضت الرد على اتصالات خطيبى السابق.

ومرت ستة أشهر عصيبة من حياتى.. ثم أتيحت لى فرصة السفر لأداء العمرة، فسافرت لكى أغسل أحزانى فى بيت الله الحرام.. وأديت مناسك العمرة.. ولذت بالبيت العتيق وبكيت طويلا، ودعوت الله أن يهيئ لى من أمرى رشدا، وفى أحد الأيام كنت أصلى فى الحرم وانتهيت من صلاتى وجلست أتامل الحياة فى سكون، فوجدت سيدة إلى جوارى تقرأ فى مصحفها بصوت

جميل.. وسمعتها تردد الآية الكريمة «وكان فضل الله عليك عظيما» فوجدت دموعى تسيل رغمًا عنى بغزارة، والتفتت إلى هذه السيدة وجذبتنى إليها، وراحت تربت على ظهرى بحنان، وهى تقرأ لى سورة الضحى إلى أن بلغت الآية الكريمة «ولسوف يعطيك ربك فترضى» فخيل إلى أننى أسمعها لأول مرة فى حياتى، مع أنى قد رددتها مرارا من قبل فى صلاتى.. وهدأت نفسى.

وسألتنى السيدة الطيبة عن سبب بكائى فرويت لها كل شىء بلا حرج فقالت إن الله قد يجعل بين كل يسرين عسرا، وإننى الآن فى العسر الذى سوف يليه يسر بإذن الله.. وإن ما حدث لى كان فضلا من الله لأن فى كل بلية نعمة خفية كما يقول العارفون، وشكرتها بشدة على كلماتها الطيبة ودعوت لها بالستر فى الدنيا وفى الآخرة.

وغادرت الحرم عائدة إلى فندقى وأنا أحسن حالا، وانتهت فترة العمرة وجاء موعد الرحيل، وركبت الطائرة عائدة إلى القاهرة فجاءت جلستى إلى جوار شاب هادىء الملامح وسمح الوجه، وتبادلنا كلمات التعارف التقليدية. فوجدتنى أستريح إليه واتصل الحديث بيننا طوال الرحلة إلى أن وصلنا إلى القاهرة، وانصرف كل منا إلى حال سبيله، وأنهيت إجراءاتى فى المطار، وخرجت فوجدت زوج أقرب صديقاتى إلىَّ فى صالة الانتظار، فهنأنى بسلامة العودة وسألته عما

جاء به للمطار، فأجابنى بأنه فى انتظار صديق عائد على نفس الطائرة التى جئت بها. ولم تمض لحظات إلا وجاء هذا الصديق، فإذا به هو نفسه جارى فى مقاعد الطائرة وتبادلنا التحية، ثم غادرت المكان بصحبة والدى.

وما أن وصلت إلى البيت وبدلت ملابسى واسترحت بعض الوقت حتى وجدت زوج صديقتى يتصل بى، ويقول لى إن صديقه معجب بى بشدة، ويرغب فى أن يرانى فى بيت صديقتى فى نفس الليلة لأن خير البر عاجله، ثم يسهب بعد ذلك فى مدح صديقه والإشادة بفضائله، ويقول لى عنه إنه رجل أعمال شاب من أسرة معروفة وعلى خلق ودين، ولا يتمنى لى من هو أفضل منه لكى يرشحه للارتباط بى.

وخفق قلبى لهذه المفاجأة غير المتوقعة.. واستشرت ابى فيما قاله زوج صديقتى فشجعنى على زيارة صديقتى لعل الله جاعل لى فرجا.

وزرت صديقتى، وزوجها والتقيت بجارى فى الطائرة، واستكملنا التعارف وتبادلنا الإعجاب.. ولم تمض أيام أخرى حتى كان قد تقدم لى.. ولم يمض شهر ونصف الشهر بعد هذا اللقاء حتى كنا قد تزوجنا، وقلبى يخفق بالأمل فى السعادة، وحديث السيدة الفاضلة فى الحرم عن اليسر بعد العسر يتردد فى أعماقى.

وبدأت حياتى الزوجية متفائلة وسعيدة ووجدت فى زوجى كل ما

تمنيته لنفسى فى الرجل الذى أسكن إليه من حب وحنان وكرم وبر بأهله وأهلى، غير أن الشهور مضت ولم تظهر على أية علامات للحمل، وشعرت بالقلق خاصة أننى كنت قد تجاوزت السادسة والثلاثين، وطلبت من زوجى أن أجرى بعض التحاليل والفحوص خوفا من ألا أستطيع الإنجاب، فضمنى إلى صدره وقال لى بحنان غامر إنه لا يهمه من الدنيا سواى.. وإنه ليس مهتما بالإنجاب، لأنه لا يتحمل صخب الأطفال وعناءهم، لكنى أصررت على مطلبى.. وذهبنا إلى طبيب كبير لأمراض النساء، وطلب منى إجراء بعض التحاليل، وجاء موعد تسلم نتيجة أول تحليل منها فوجئت به يقول لى إنه لا داعى لإجراء بقيتها؛ لأنه مبروك يا مدام.. أنت حامل!».

فلا تسل عن فرحتى وفرحة زوجى بهذا النبأ السعيد.. وغادرت عيادة الطبيب، وأنا أشد على يده شاكرة له بحرارة.

وفى ذلك الوقت كان زوجى يستعد للسفر لأداء فريضة الحج، فطلبت منه أن يصطحبنى معه لأداء الفريضة وأداء واجب الشكر لمن أنعم على بهذه النعم الجليلة، ورفض زوجى ذلك بشدة وكذلك طبيبى المعالج لأننى فى شهور الحمل الأولى.. لكنى أصررت على مطلبى، وقلت لهما إن من خلق هذا الجنين فى أحشائى على غير توقع قادر على أن يحفظه من كل سوء، واستجاب زوجى لرغبتى بعد استشارة الطبيب، واتخاذ بعض الاحتياطات الضرورية وسافرنا للحج وعدت وأنا أفضل مما كنت قبل السفر.

ومضت بقية شهور الحمل فى سلام وإن كنت قد عانيت معاناة زائدة بسبب كبر سنى، وحرصت خلال الحمل على ألا أعرف نوع الجنين لأن كل ما يأتينى به ربى خير وفضل منه، وكلما شكوت لطبيبى من إحساسى بكبر حجم بطنى عن المعتاد، فسره لى بأنه يرجع إلى تأخرى فى الحمل إلى سن السادسة والثلاثين. ثم جاءت اللحظة السحرية المنتظرة وتمت الولادة، وبعد أن أفقت دخل على الطبيب وسألنى باسما عن نوع المولود الذى تمنيته لنفسى فأجبته بأننى تمنيت من الله مولودا فقط ولا يهمنى نوعه.. ففوجئت به يقول لى: إذن مارأيك فى أن يكون لديك الحسن والحسين وفاطمة!

ولم أفهم شيئا وسألته عما يقصده بذلك، فإذا به يقول لى وهو يطالبنى بالهدوء والتحكم فى أعصابى إن الله سبحانه وتعالى قد منَّ على بثلاثة توائم، وكأن الله سبحانه وتعالى قد أراد لى أن أنجب خلفة العمر كلها دفعة واحدة رحمة منه بى لكبر سنى، وأنه كان يعلم منذ فترة بأننى حامل فى توءم، لكنه لم يشأ أن يبلغنى بذلك لكيلا تتوتر أعصابى خلال شهور الحمل ويزداد خوفى. ولم أسمع بقية كلامه فلقد انفجرت فى حالة هستيرية من الضحك والبكاء وترديد عبارات الحمد والشكر لله.. وتذكرت سيدة الحرم الشريف.. والآية الكريمة.. «ولسوف يعطيك ربك فترضى».. وهتفت إن الحمد لله.. الذى أرضانى وأسبغ على أكثر مما حلمت به من نعمته.

أما زوجى الذى كان يزعم لى أنه لا يتحمل صخب الأطفال وعناءهم؛ لكى يهون على همى بأمرى فلقد كاد يفقد رشده حين رأى أطفاله الثلاثة، وراح يهذى بكلمات الحمد والشكر لذى الجلال والإكرام حتى خشيت عليه من الانفعـال. وأصبح من هذه اللحظة لا يطيق أن يغيب نظره عنهم.

وإننى أكتب إليك رسالتى هذه من أحد الشواطىء، حيث نقضى إجازة سعيدة أنا وزوجى وأطفالى، ولكى أرجوك أن توجه رسالتى هذه إلى كل فتاة، تأخر بها سن الزواج أو سيدة تأخر عنها الإنجاب وتطالبهن بألا يقنطن من رحمة الله.. وألا يقطعن الرجاء فى الخالق العظيم، وألا يمللن سؤاله والدعاء إليه أن يحقق لهن آمالهن فى الحياة، فلقد كنت أردد دائما دعائى المفضل: ربى إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك، فرحمتك أهل لأن تبلغنى لأنها قد وسعت كل شىء.

وأخيرا فإنى أسألك وقراءك صالح الدعاء لى ولزوجى الحنون ولأطفالى، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى.

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

سئل الإمام الشافعى رضى الله عنه ذات يوم: أيهما أفضل للمؤمن: أن يُبتلى أم أن يُمكن «أى أن يحقق له الله كل ما يرجوه لنفسه».

فقال: وهل يكون تمكين إلا بعد ابتلاء؟

ثم أشار فى إجابته عن السؤال إلى قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وما تعرض له من ابتلاء تلو ابتلاء حتى جاءه الفوز العظيم «وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء»، وأشار إلى قول يوسف فى الآية الكريمة بعد أن مكَّن له ربه ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف: ٩٠].

فالتقوى والصبر إذن هما مفتاحا نيل الرجاء وتحقيق الأمنيات والتمكين فى الدنيا.

ونحن جميعا نطلب السعادة لأنفسنا فى الحياة.. ونكاد فى بعض الأحيان نردد ما قالته الممثلة الفرنسية جولييت فى خطابها الشهير إلى من أحبته بإخلاص ثلاثين عاما أو تزيد، وهو الأديب الفرنسى فيكتور هوجو: لو كان للإنسان أن يشترى سعادته بحياته لأنفقت عمرى منذ زمن بعيد! ولكن من منا يلزم نفسه فى سعيه إلى سعادته وتحقيق أحلامه فى الحياة، بالتقوى والصبر إلى أن تهبط عليه جوائز السماء للصابرين المتقين؟

ولا شك فى أنك قد صبرت على الإيلام والإيذاء المعنوى، اللذين تعرضت لهما فى تجربتك السابقة وقرنت الصبر بالتقوى والالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية، فما أسرع ما جاءتك جوائز السماء تترى.. ليس فقط بتحقيق أمنياتك فى الزواج والسعادة

والإنجاب، وإنما أيضا بما هو أكثر من كل ما رجوت لنفسك، وأبعد من كل ما تطاول إليه خيالك ذات يوم.

فكأنما إراد الله سبحانه وتعالى أن يفحم من تشككت من قبل فى قدرتك على على الإنجاب، وكرهت لابنها أن يتعلق بالأمل الضعيف فى إنجاب طفل واحد منك، فيقول لها ولأمثالها: إننى إنا الله أقول للشيء كن فيكون، وأرزق من أشاء حين أشاء بغير حساب ﴿ **نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف ٥٦].

فإذا كانت سيدة الحرم المكى الشريف قد حدثتك وهى تسرى عنك عن فضل الله، الذى قد يتمثل من حيث لا ندرى فى البلية، فلقد كانت تشير فى حديثها إليك إلى الألطاف الخفيّة، التى يقول عنها العارفون إنها قد تصاحب الابتلاء، حين تجيء إلينا أقدارنا ببعض ما نكره تمهيداً لأن تحمل إلينا فيما بعد كل ما نحب ونرجو.

ولقد جاءك برهان ربك على أن ما بكيت له من فشل تجربتك السابقة فى الارتباط، لم يكن كله ابتلاء.. وإنما كان تمهيداً لأن يحقق لك ربك فوق كل ما كنت ترجين لنفسك من سعادة ورجاء، إذ من يستطيع أن يجزم أنك لو كنت قد تزوجت خطيبك السابق كنت ستسعدين به، كما تسعدين الآن بحياتك مع زوجك المحب البار بأهله وأهلك، والذى تظاهر بعدم رغبته فى الإنجاب لكيلا يجرح مشاعرك أو يثير شكوكك فى مستقبل حياتك معه.

بل ومن يستطيع أن يجزم أنك لو كنت قد تزوجته كنت ستنجبين منه هؤلاء التوائم الثلاثة، الذين أهداهم لك ربك تعويضا لك عن سنوات الصبر والانتظار؟

إننا نعرف جيدًا أن لخصوبة الرجل الأثر الأكبر فى تحديد نوع الجنين، وعدد الأجنة التى تحملها المرأة، فكيف كانت ستتحقق إذن تلك الألطاف الخفية، وتهديك السماء هذه الزهرات الثلاث دفعة واحدة، لو كنت قد نلت ما أسفت على ضياعه منك فى حينه.

أليس هذا دليلا جديدا على صدق مقولة الإمام الحسن بن على رضى الله عنهما: من رضى بحسن اختيار الله له، لم يعدل بما اختاره الله له شيئا!

لقد اختار لك الله سبحانه وتعالى ياسيدتى، فكان اختياره لك أفضل وأكرم مما اخترت أنت لنفسك من قبل.. وحق عليك الشكر آناء الليل وأطراف النهار، فالشكر حافظ النعم كما يقولون، ولاشك فى أنك من الشاكرين المبتهلين إلى ربهم أن يجعلهم أهلا لما أنعم الله به عليهم ويحفظ عليهم نعمته.. فهنيئا لك سعادتك وجوائز السماء التى تضىء حياتك، وشكرا لك على رسالتك الجميلة.

❑ ❑ ❑

كتب للمؤلف

١- أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٢- يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الثالثة ٢٠٠٤
٣- هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٤- صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة ٢٠٠١
٥- نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٦- العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٧- صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٨- افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٩- اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
١٠- أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
١١- أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
١٢- رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٣- أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٤- لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٠
١٥- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٠

١٦- أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٠
١٧- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٨- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٩- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢٠- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢١- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢٢- سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الرابعة ٢٠٠٤
٢٣- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٤- صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ١٩٩٧
٢٥- أهلاً.. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٦- قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٧- أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٢٨- حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١
٢٩- صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١

• كتب للمؤلف من إصدارات « الدار المصرية اللبنانية »

٣٠- العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة السادسة ٢٠٠٣
٣١- وقت للسعادة وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة ٢٠٠٣
٣٢- شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٢
٣٣- خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٣٤- وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٣٥- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
٣٦- عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٣٧- ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٣
٣٨- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٣
٣٩- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٣
٤٠- أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٢
٤١- من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٤٢- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٢
٤٣- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٤- هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٥- حكايات شارعنا	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٦- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٧- الرسم فوق النجوم	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٨- تحية المساء	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٣
٤٩- الزهرة المفقودة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠٤
٥٠- يوميات طالب بعثة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٤
٥١- سائح فى دنيا الله	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٤

فهرست الكتاب

الزهرة المفقودة

على مدى 225 صفحة ، يظل السؤال عن ماهية الزهرة المفقودة ، يشغل ذهن القارئ .. ذلك الرمز الذى أبدع الأستاذ عبد الوهاب مطاوع - كعهده دائما - فى أن يجعله تيمة لهذا الكتاب .. فإذا بالتيمة تتحول إلى منظور لا متناهى الأبعاد ، ثرى وذكى ، يكمن ثراؤه فى أنه يحمل بصدق خبرة المؤلف وتجارب إنسانية متواصلة متدفقة مع قرائه ، تعبر بجلاء عن شفافية التواصل والإحساس المتفرد بإمكانة الكلمة ، عندما تصير أمانة فى يد قائلها .. ويسمو بها سمو إيمانه بما أثقلته الأقدار عليه من مهام وهموم ... ويكمن ذكاؤها فى أنها تمنحك الإحساس بخصوصية هذه التجارب وأنها تحمل قدرا كبيرا من ذاتيتك ومشاعرك كقارئ..

ورغم ذلك يظل السؤال عن ماهية الزهرة المفقودة متجسدا .. هل السعادة الإنسانية ... أم التواصل ... أم الحكمة ... أم خبرة الألم ... أم آمال الإنسان ... أم إحباطه ... أم هى مزيج من كل ما سبق ... دعنا نترك الأمر لفطنتك ورؤيتك ورغبتك فى الكشف والمعرفة !!



- مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .
- حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .
- يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982 ، ويشرف على باب بريد الأهرام .
- صدر له 51 كتابا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصا قصيرة وصورا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات .
- له ثلاث مجموعات قصصية هى : (أماكن فى القلب)و(لاتنسنى) و (الحب فوق البلاط) .



